رواية

أحمد ماضي



متى تجيء ؟

ثرثرة مستوحاة من معلومات

البطاقة العائلية

تلك الروايات

متى تجيء ؟

أحمد ماضي

فهرس

أما قبـــل

معلومات البطاقة العائلية الصماء تشير إلى مولـدي في الخامس من أبريل عام ١٩٤٤، وهذا التاريخ هو المقياس الهام لدى رجال الإدارة الذين يحددون لـك موعـد دخـول المدرسة.. وموعد الالتحاق بـالجيش.. ومـدى حقـك فـي الاشتراك في مسابقة أدبية حيث يكتبون " يجب ألا يزيد عمر المتسابق عن أربعين عاما ".. ففي ظنهم أن من ظل يكتـب بعد هذا العمر فقد أصبح خارج المنافسة ويجـب أن يتـرك الفرصة للناشئة.. ولكنهم نسوا حالة " يمكن أن تكون متكررة " لإبراهيم حسني "- أحد رواد صالوني الأدبي - الذي أحيل إلى المعاش منذ سنوات، وقد زار الصالون عدة مرات بحكم قرابته لي.. كان يجلس مندهشًـا.. وظـل يواظـب علـى الحضور.. ثم راق له أن يكتب قصة.. وقدمها لي.. فعلقـت له عليها باهتمام.. ثم راق له أن يكتب قصة أخـرى.. ثـم تسلل إلى عالم الكتابة خَجِلاً.. ثم جسورا.. وصار يهاتفني:

- " أنا كتبت قصة جديدة يا خال "..

ومهاتفة أخرى:

- "جاي لك في البريد قصتين حلوين.. يـا خـال"..
وينهال علي البريد بأكثر من عشرين قصـة.. حتـى أننـي فتحت له ملفًا كبيرا بعنوان "قصص إبراهيم حسني".. فضلته عن عنوان آخر كان يلح علي:
" قصص الأديب الناشِئ: إبراهيم حسني "..

إن إبراهيم حسني هذا كسر القاعدة !.. بدأ الحياة بعد سن الستين،.. وراح يلهث خلف الدهشة الوليدة التي زارتـه على كِبر - إنها دهشة الإبداع.. وأنا أراهن أن هذا الرجل قد تجددت خلاياه.. وسرتْ في جسده مياه جديدة، إنهـا نفـس المياه التي تجف في أجساد أخرى لأناس في نفس عمـره.. أجساد الرجال الذين لا يكتبون -..

لقد لاحظت من الأبحاث التي اطلعت ومازلت أطلـع عليها لطلبة تمهيدي الماجستير بكلية الآداب جامعـة طنطـا حول روايتي "الظلام الدافئ" أنهم حريصون على إدراجهـا تحت حالة معينة من حالات الكتابة.. " الواقعية التاريخية ".. أو " الرواية التهذيبيـة " أو "الروايـة التربويـة".. إلـخ.. وتساءلت: ماذا لو سألني أحدهم: تحـت أي حالـة تنـدرج روايتك ؟.. فسوف أقول: لا أدري.. لأنني فعـلاً لا أدري..

والسبب أنني كنت أتساءل عن فِعل الكتابة نفسه.. لماذا أكتب ؟.. لماذا يأخذني هذا الداء اللذيذ من نفسي؟.. لمـاذا أذهـب إليه كلما ناداني تاركًا خلفي أشياء حياتية أخرى – هي فـي نظر كل من يشاركني مهنتي – أكثر أهمية.. ولهـم الحـق طبعا إذ إن مقاييسهم ليست هي مقاييسي..

لقد داخلني ارتياح شديد عندما قرأت لكاتب فرنسي رأيه الذي يقول:

"لو عرفنا لماذا نكتب.. ما كتبنا.."

ثم عرفت أن مقاييس العمر.. نسبية.. بسبب (حادثة) إبراهيم حسني..

ثم أيقنت أنه يجب على المرء ألا يسأل النحلة: لمـاذا تفـرز العسل ؟..

* * * *

أحمد ماضي

(١)

١٩٤٤.. (الخامس من أبريل)

كانت الحرب العالمية الثانية في النـزع الأخيـر.. وعندما انتهت كمعارك ضارية في أوروبا بـدأت كأحاديـث ضارية على مصاطب الريف المصـري.. يتحـدثون عـن هتلر.. الذي سمعته من أمي هكذا: الألماني "هتلر".. لقد امتد الحديث الضاري حتى وصلني في سن الخامسة عندما كانوا يراهنون أن هتلر مازال على قيد الحياة.. وأنه حتما سيعود.. ثم أحاديث عن الكوليرا التي ضربت الريف المصـرى فـي تلك السنوات.. وكيف كانوا يحرقون موتاهم.. وكيف كانـت كلمة "طَرشَ.. ثم ظَرب.. ثم مات" هي البقية الباقية في أفواه الأطفال وأنا منهم..

لا أدري لماذا يروق للشاعر أن يكتب حياته شعرا؟.. لقد راق لي أن أفعل ذلـك.. ولا أدري لمـاذا ؟.. ولكنـي تعجبت أن يكون تاريخ ميلادي هو أول بيـت فـي قصـيدة رحت أحكي فيها عن نفسي:

" في اليوم الخامس من أبريل

دوت في أعماق القرية.. صرخة..

وانفلتت في أيدي النسوة رأسي

لفتني امرأة عجفَاء

- مازالت تحيا حتى اليوم -

بِرداء الكد المعروق

بِرداءٍ ألقاه أبي

ومضى للداخل كي يرتاح.. "

وهي قصيدة طويلة سردت فيها على نفسي ما حدث لي، من أنني هربت من كُتّاب الشيخ الضرير الذي كنا نحفظ القـرآن على يديه بالضرب المنهال "على أيدينا ".. وأنهم أدخلـوني المدرسة – رغما عنهم – لأنني نجحت في تكرار الهـروب مختبئًا بين أشجار النخيل التي كانت تعوقهم عـن الإمسـاك بي.. فقد كنت خفيفًا وشقيا.. ولأن سني كانت قد تجـاوزت دخول السنة الأولى فقد كان لابد أن أجتاز امتحانًا يـؤهلني لدخول المدرسة إلى السنة الثالثة رأسا.. وقد حدث.. وأذكـر أنني أنهيت القصيدة بحديث عن الفن.. ذلك الشيطان الـذي اختارني..

اخترت الفن

لم أختره عفو الخاطر

لكني كنت المختار

هم يتبعني ليل نهار

يوقظني كي أكتب شعرا

أو قصة

أو أرسم رسما مخبولاً

ورضخت رضوخ المضطر

إذ يأسرني ذاك الأمر

لكني أيقنت يقينًا

لا أنكره لا أخشاه

ما ينبع فينا بالحب

ينمو أفضل من فعل

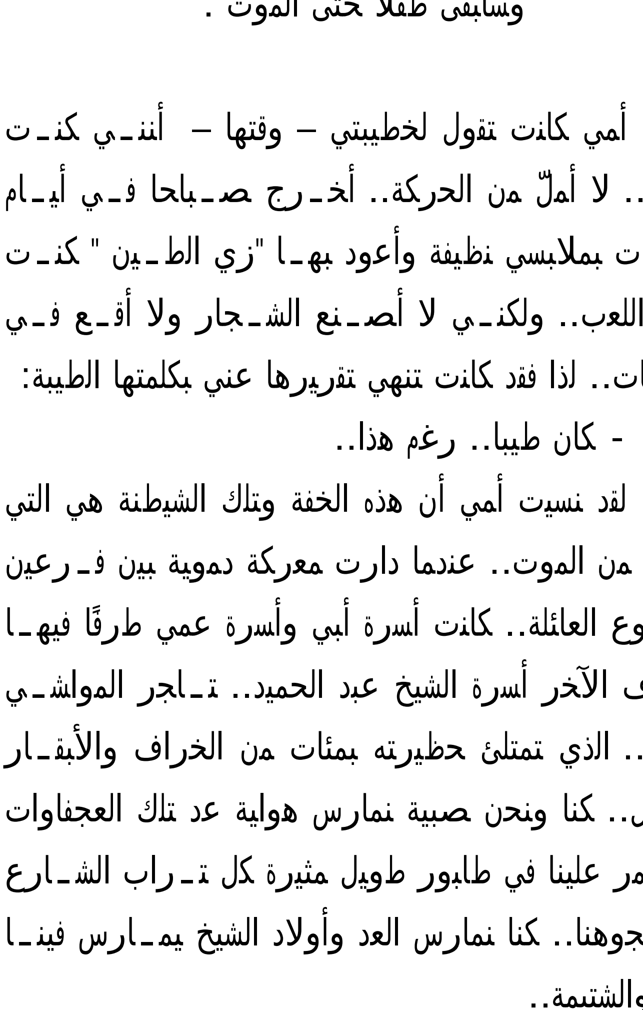
يزرع فينا بالإكراه

وعلوم الدنيا – لو نعلم –

تُكمل في الأصل علوم الدين

مثل الليل.. ومثل الفجر

فدعوني أملك أسبابي



أشرفت على الدنيا طفلاً
وسأبقى طفلاً حتى الموت .

أمي كانت تقول لخطيبتي – وقتها – أنني كنت شيطانًا.. لا أملّ من الحركة.. أخرج صباحا في أيام الأجازات بملابسي نظيفة وأعود بها "زي الطين " كنت أهوى اللعب.. ولكني لا أصنع الشجار ولا أقع في المخالفات.. لذا فقد كانت تنهي تقريرها عني بكلمتها الطيبة:

- كان طيبا.. رغم هذا..

لقد نسيت أمي أن هذه الخفة وتلك الشيطنة هي التي أنقذتني من الموت.. عندما دارت معركة دموية بين فرعين من فروع العائلة.. كانت أسرة أبي وأسرة عمي طرفًا فيها والطرف الآخر أسرة الشيخ عبد الحميد.. تاجر المواشي الشهير.. الذي تمتلئ حظيرته بمئات من الخراف والأبقار والجمال.. كنا ونحن صبية نمارس هواية عد تلك العجفاوات وهي تمر علينا في طابور طويل مثيرة كل تراب الشارع على وجوهنا.. كنا نمارس العد وأولاد الشيخ يمارس فينا السب والشتيمة..

لقد وقعت معركة في يوم الحصاد.. تمكن عمي من أحد أبناء الرجل وهشم جمجمته.. تجندل الجريح حتى ظنوه قد مات.. هربت الأسرتان.. أسرتنا وأسرة عمـي وأغلقتـا خلفهما الأبواب.. كنت الوحيد من الأسـرتين خـارج تلـك الأبواب.. كنت أتمشى بين الجمهور الذي كان عدده هو نفس عدد أبناء القرية كلها.. الزحام شديد.. وأصـوات الهلـع " والعديد " على جثة الجريح / الميت على أشـدها.. وأسـرة المجني عليه يبحثون حتى عن طفل من الخصوم ليقتلـوه.. وكانت رأس أبي تطل من فوق السطوح على حذرٍ؛ ليتعرف على موقعي بين الجموع.. متمنيا أن أراه لأتلقـى إشـارته بالتسلل إلى المنزل.. ولكن أخي لم يتحمل هذا الـبطء فـي سيناريو إعادتي؛ فنادى علي.. ووصل صوت النـداء إلـى الخصوم الملتاعين.. وأحس الناس بفاجعة قادمة.. بدت لهـم عندما تنبه الخصوم لوجودي.. وعندما تحركوا نحوى أطلقتُ ساقي للريح أمامهم نحو باب المنزل... البـاب كبيـر بـه (خوخة) صغيرة.. " يفتح الباب لإدخـال البهـائم.. وتفـتح الخوخة لإدخال البشر ".. توارى أبي خلف الخوخة نصـف المفتوحة ليتلقاني.. كنت أعدو وخلفي الكثير من العـدائين..

وانشطر جمع الناس إلى صفين ليفسحوا لي الطريق.. كنـت أعدو لاهثًا من الطرف القصي للمعركة للطرف الآخر الذي ينتهي عند الخوخة.. مازالت صرخات النسوة في ذاكرتي.. ومازالت الطرحة السوداء التي حركتها إحداهن أمام وجهـي لتدعوني إلى مزيد من السرعة هي الشيء الذي أتذكره كلما رغبت في ممارسة مزيد من السرعة في حياتي وهذا أقل ما يمكن أن يحتفظ به طفل - في داخله مبـدع – مـن الأيـام الخوالي..

لقد اجتزت (الخوخة) ودخلت الدار وكان بيني وبين الكروش اللاهثة والسيقان العجوزة مسافة كبيرة.. أنقذتني من الموت..

لقد ظل هذا الحادث في ذاكرة القرية سنوات طويلة.. ومازلت أعتز بتلك اللفتة التي صنعها أخي غيـر الشـقيق.. لفتة إنسانية كانت ذروة هذه القصة..

كان قد تزوج من ابنة عمي - ذلـك الـذي تصـدى للدفاع عن كرامة العائلة وجندل واحدا من خصومها بعصـا غليظة تنتهي في آخرها بجلبـة حديديـة، الجلبـة حطمـت الجمجمة التي كنا نراها – بعد الحادث - غائرة كلمـا رفـع

الرجل طاقيته ليحك رأسه.. والضربة حطمت العلاقة حتـى عادت إلى سيرتها الأولى بفعل النسيان " تلك النعمة الإلهيـة "، ولكن أخي هذا لم ينس أن زوجته العاقر هي ابنـة ذلـك الرجل الذي نال منه السجن ما ناله بسبب هذه الضربة.. ولا يمكن لهذه السيدة أن يكون الطلاق جزاءها لكونها لم تنجب.. إذ لا يمكن أن يسرح ابنة عمه البطل لهذا السبب..

لقد ظل محتفظًا بزوجته هذا العمـر الطويـل حتـى رزق بوظيفة في السعودية وكان قد اقترب من السبعين عاما.. ولم يجد نفعا لفلوس السعودية سوى بناء منـزل مـن طـابقين بالخرسانة المسلحة.. وتهامس الناس:

- لماذا يبني هذا المنزل وهو لا يملك ذُرية ترثه..؟..

وأضاف أخي حكمة أخرى: " لو عرفت لمـاذا أبنـي.. مـا بنيت.. ".. كان لا يعلم أن زوجته الأولى عندما تموت.. فلن يلوم نفسه ولن يلومه الناس إذا تزوج - ولو في هذا العمـر العجيب - بامرأة أخرى لتنجب له الوريث..

ولقد ماتت ابنة العم فعلاً... وتزوج العجوز.. فأنجبـت لـه الزوجة الثانية - ولده الوارث في العام الثاني - إنها قصـة أخرى.. لخوخة أخرى كالخوخة التي التقمتني بعيـدا عـن

الموت.. قصة انتهت بوريث كان يتمني أن يكـون ضـابطًا بالشرطة آملاً أن تثمر محاولات عمه ـ الذي يحدثكم ـ عن نجاحٍ في إلحاقه بالشرطة.. ولم تنجح المحاولة رغم الهيئـة الرياضية للولد.. ذلك أن الهيئة الاجتماعية تقول إنه ينحـدر من ظهر (عامل).. ونسوا أن يكتبوا على غلاف ملفه: إنـه ينحدر من ظهر عاملٍ في منتهى الوفاء..

(٢)

مهندس معماري

لم تكن هذه المهنة هي التي سعيت إليها.. ولكنها المهنة التي قدمها لي القدر.. وقابلني بها الحظ..

أجبته:

- أريد أن أكون فنانًا..

فسألني:

- يعني إيه.. فنان إيه ؟..

قلت لـه:

- أرسم لوحات على أغلفة الروايات مثـل الفنـان جمـال قطب.. والفنان بيكار..

أشار لي بامتعاض أن أجلس.. ولسان حاله يقول:

- أنت ولد خايب.. كل زملائك يطلبون الطـب والهندسـة والصيدلة.. وأنت تقول فنان.. صحيح إنك خايب..

وجلست وقد اعتراني بعض الحزن لأنه لم يناقشني في تلـك الرغبة الجامحة في أن أكون من طلاب كلية الفنون الجميلة، قلت لنفسي: هذا المدرس إنما فتح هذا الموضوع ليتسلى بنـا حتى يأتي ميعاد الجرس..

ومع هذا فقد صار هذا المطلب هو الملح على عقلي وقلبـي وأنا أحمل شهادة الثانوية العامة وأحمل زيارة ريفيـة إلـى خالي بالقاهرة وأنا في طريقي إلى مكتب التنسيق..

قال لي ذلك الخال والد الفتاة التي أصبحت زوجتي.. والـذي يكتب الشعر ويراجع دواوين الشعراء كعمل إضافي بالقطعة مع وزارة الثقافة.. ويعمل بنيابة أمن الدولة..

- ما هي الكليات التي ستختارها..؟..

أجبت بلا تردد:

- أي كلية فيها كلمة فنون..

فنون جميلة..

فنون تطبيقية..

المعهد العالي للتربية الفنية..

إلخ..

- وباقي الكليات..؟..
- من حسن حظي أني رسبت فـي الفيزيـاء.. وهـذا يمنعني من دخول العلوم والزراعة.. وهـذا الخبـر سقط عليهم في البلد – يا خال – كالصاعقة وأنقذني منهم، فكان كل همهم أن أدخل كلية الزراعة بكفـر الشيخ.. توفيرا للمصاريف.. ولو كنت نجحت فـي الفيزياء.. وا ماكان خلصني من أيديهم جمال عبد الناصر نفسه.. كان لازم حيدخّلوني الزراعة.. أنـا فرحان قوي يا خال عشان سقطت في الفيزياء..

وضحك الرجل.. وضحك أكثر عندما أخبرته أنني رسبت في مادة الفيزياء لأنني نمت في الامتحان..

كنت تعبان قوي.. جاوبت على الأسئلة التي أعرفهـا.. ثـم نمت..

" فمن علمك النوم يا فتى حتى تحصل على مستقبلك المأمول ؟!.. "

" وأي سخرية يسخرها مني من يراني نائما في قلب اللجنة.. ولو رأى ما خلف هذه النومة من مكاسب لحسدني عليها ؟.. "

وأي إرهاق ذلك اللذيذ الذي سطا علي لأحصل علـى حقـي المكتوب في اللوح المحفوظ.. ؟ "

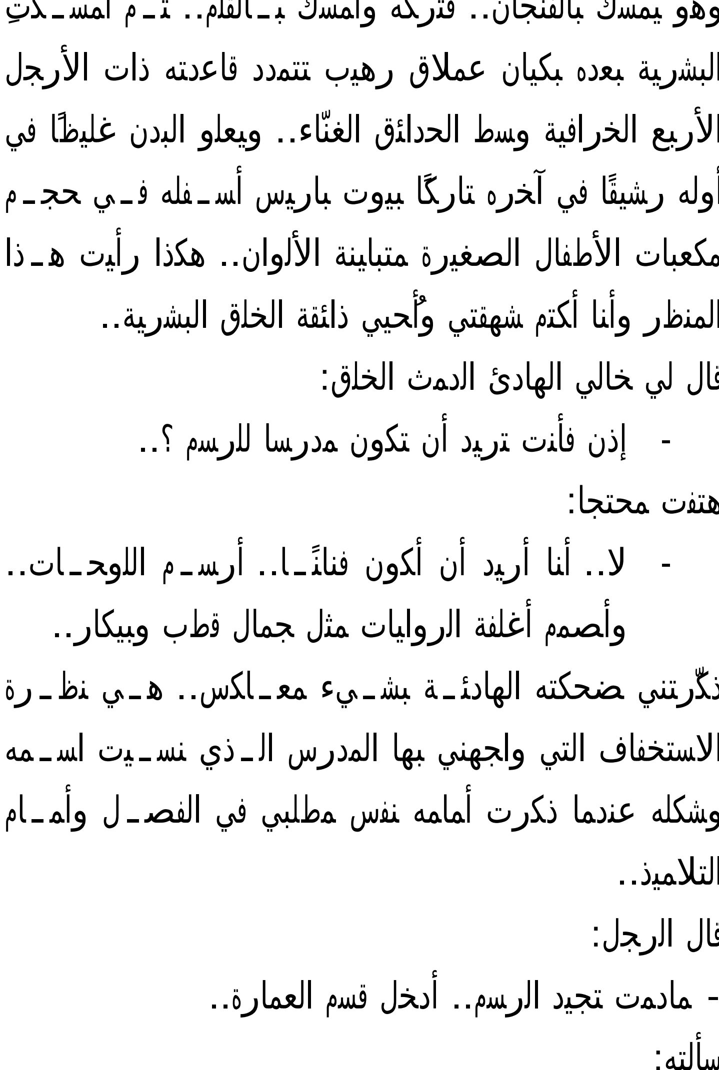
لقد اسود وجه أخي الأكبر وهو يرى كعكة دائرية حمراء حول كلمة (الطبيعة) أي الفيزياء.. واسود وجهه أكثر عندما رآها المانع الشرعي في استمراري بجوارهم طالبـا بكليـة الزراعة.. متمتعا كما في مخيلتهم بالصورة الجميلة لنـاظر الزراعة الذي يركب (الكارِتة) ويمر على أراضي المصلحة آمرا ناهيا.. وعندما يذهب إلى استراحته يكون قد سبقه إليها جنايني.. وخادم.. وأكثر من خادمة.. على حساب الدولة.. " نوع من السخرة المستترة "..

لقد كان قلبي يرقص فرحا.. دون أن أُظهر لهم شـماتتي في نيتهم ضدي.. فأنا أحب الفن.." يا عالم اذهبوا بـي إلـى الفن ".." كل هذا ولا تقربونى من الفن ؟"..

كنت قد ملأت جدران المدرسة من الداخل باللوحـات الضخمة، وجاء مدير المديرية التعليمية فاختار عدة لوحـات

علقها على جدار المبني من الخارج ليراها الجمهور.. وكان أبي يقف معتليا حماره مشيرا إلى لوحاتي لأصـدقائه وهـو مملوء بالفخر والاعتزاز..

كنت أرسم جمال عبد الناصر.. لازم أرسم جمال عبـد الناصر.. وعلم مصر.. والسد العالي.. والمصانع . وفي كل مرة أصنع تشكيلاً مختلفًا.. كان مقاس اللوحـات ٣ متـر × ١,٥ متر.. السبب هو أن ألواح السيلوتكس الخشبية الموجودة في مصر وقتها كان مقاسها ١,٥م×١,٥م.. وكان الأستاذ عبد الكريم يرى أنني جدير بتسمير عدد ٢ لوح فـي بعضـهما البعض لأرسم عليهما لوحة كبيرة.. وكنت صغيرا.. فكـان الحل هو أن أقف على كرسى عالٍ لأطول نهاية " اللوحة ".. كنت أمتزج بالألوان.. ولا أمزجها فقط.. وأعتنق الفكرة التي تبدأ معي " اسكتشًا " صغيرا في ورقة صغيرة.. كنـت أرى أن هذه الورقة الصغيرة هي الأساس.. لأن الفكـرة فـي أي شيء هي الأساس.. والفِكْر كما تبين لـي فيمـا بعـد هـو الأساس.. وعندما عرفت أن مستر (إيفل) أو مسيو (إيفـل) رسم برجه الشهير على مشط كبريت وهو جـالس يحتسـي القهوة في المقهى.. عرفت أن لحظة الإلهام الإلهـي جاءتـه



وهو يمسك بالفنجان.. فتركه وأمسك بـالقلم.. ثـم أمسـكتِ البشرية بعده بكيان عملاق رهيب تتمدد قاعدته ذات الأرجل الأربع الخرافية وسط الحدائق الغنّاء.. ويعلو البدن غليظًا في أوله رشيقًا في آخره تاركًا بيوت باريس أسـفله فـي حجـم مكعبات الأطفال الصغيرة متباينة الألوان.. هكذا رأيت هـذا المنظر وأنا أكتم شهقتي وأُحيي ذائقة الخلق البشرية..

قال لي خالي الهادئ الدمث الخلق:

- إذن فأنت تريد أن تكون مدرسا للرسم ؟..

هتفت محتجا:

- لا.. أنا أريد أن أكون فنانًـا.. أرسـم اللوحـات.. وأصمم أغلفة الروايات مثل جمال قطب وبيكار..

ذكّرتني ضحكته الهادئـة بشـيء معـاكس.. هـي نظـرة الاستخفاف التي واجهني بها المدرس الـذي نسـيت اسـمه وشكله عندما ذكرت أمامه نفس مطلبي في الفصـل وأمـام التلاميذ..

قال الرجل:

- مادمت تجيد الرسم.. أدخل قسم العمارة..

سألته:

- يعني إيه ؟..
أفهمني: كلية الفنون الجميلة بها قسم اسمه قسـم العمـارة.. يدخله الطلبة ذوو القدرات العالية في الرسـم.. لـو قبلـوك فسوف تتخرج مهندسا معماريا كخريج كليـة الهندسـة لأن نقابة المهندسين لا تفرق بين خريج الهندسة وخريج الفنون.. ألا تعرف هذا الموضوع ؟..

اعتراني الخجل.. فلـم يسـبق لـي معرفـة هـذا الموضوع.. ومن يا ترى سيعلمني به ؟.. فكل من حولي لا يهتمون بالفن.. ومن يهتم بالهندسة منهم فهو يختـار قسـم الميكانيكا أو الكهرباء.. حتى المدني لم أجد من يختاره..

كان يجالس خالي وقتها جاره ساكن الشـقة العلويـة الذي تدخّل برأيه موضحا أن " هذه المسألة ليست سهلة.. إذ كان من الواجب علي أن أتدرب على الرسم المعماري قبـل دخول اختبار القدرات.. وهناك مكاتـب فتحـت خصيصـا لتدريب الطلاب الذين يرغبون في اجتياز هـذا الامتحـان.. امتحان العمارة "..

قال خالي: لم يعد هناك وقت.. عندما تقوم بسـحب بطاقة لقسم الفنون.. اسحب بطاقة لقسم العمارة معها.. لـن

تخسر شيء.. لو رسبت في العمارة فأمامك الفنـون التـي تحبها والتي جئت أصلاً من أجلها..
قالت زوجة خالي الطيبة الفاهمة:
- عين العقل.. وبإذن ا ستنجح في العمارة..
وكان ما رسمته في الامتحان يشير إلى نجاحي.. والدليل هو ذلك الاجتماع الذي ينعقد حول منضدتي من آن لآخر.. لقـد جاءوا ليشاهدوا مدخل الحديقة العامة الذي أرسمه.. كان هذا الاجتماع من السادة المشرفين على اللجان.. أنا أرسـم فـي اهتمام.. ولا أبادلهم النظرات خجلاً.. ولكني أحس باهتمامهم برسمي فيعلو في داخلي شيء من الغـرور المتواضـع أو التواضع المغرور..
سأل أحدهم:
- انت كنت بتتدرب فين ؟..
تذكرت معلومات الرجل جار خالي الذي ذكر أمامي مراكـز التدريب على الرسم:
- أنا لم أتدرب.. أنا لسه جاي من البلد إمبارح..
من المؤكد أنه كتم ضحكته احترامـا لمشـاعري الريفيـة.. ولكني عندما سألته في هلع عن كلمة عثرت عليهـا قـرب

نهاية مدة الامتحان وظننت أنني لم آخذها في اعتباري انفجر ضاحكًا..

- لو سمحت يا أستاذ.. يعني إيـه رسـم بـالمنظور الهندسي ؟..

نادى على زميله:

- تصور ؟!! بيسألني عن المنظور الهندسي ؟..

كان الآخر فَكِها وضحوكًا فوجه إلى كلامه قائلاً:

- يخرب بيتك.. مش عارف المنظور الهندسـي ؟.. دا أنت راسم أجدع منظور هندسي..

وقال آخر:

- هو ده المطلوب.. الولد ده بيرسم من جواه..

كان يقصد بقوله هذا أن مثل هذا الطالب الفنان هـو الـذي نبحث عنه ليدرس الفنون.. ولكن كلمة: " من جـواه " هـذه لمست قلبي..

والمنظور الهندسي بالمناسبة هو أن تضـع رسـما مجسما للمرئيات.. فالمكعب مثلاً يمكنك أن تراه مستطيلاً أو مربعا أفقيا إذا نظرت إليه من أعلى.. أو رأسيا إذا واجهتـه

في نظرة متطابقة مع هذا الوجه فقط.. ولكن إذا رسمت لـه ثلاث وجوه: وجه أمامي.. ووجه جانبي.. ووجـه السـطح العلوي.. أصبح المكتب منظورا من جهات ثلاث.. وهو مـا يجسم شكل المكعب.. منظورا.. وأنا رسمت الدرج الأمامي للمدخل في الامتحان منظورا.. ثم رسمت صـالة المـدخل ثلاثية الأبعاد بالغرف التي حولها.. ثم رسمت مظلة المدخل وألقيت بظلها على الدرج.. ثم رسمت عمق الحديقة وما بها من أشجار.. حتى أنني رسمت الجنايني بعيدا كالشبح ممسكًا بخرطوم المياه التي تنساب على الحشائش.. أي أنني سحبت الرأس إلى عمق المنظر الداخلي.. مستخدما بـودرة القلـم الرصاص وورق النشّاف والأستيكة المدببة في عمل الظلال كأنها مساحات ألوان زيتية.. كنت منسجما وأنا أرهق نفسـي بعمل رسمٍ عبقري.. متذكرا أن من هم مثلي ويرغبون دخول الكلية الحربية يلقون بأنفسهم الآن من ارتفاع عشرة أمتار في حمام السباحة حتى ينالوا النجاح رغم أن أكثر ما فعلوه فـي قُراهم أن ألقوا بأنفسهم في الترعة.. فهذا هو امتحان القدرات المناسب لهم.. وهذا هو امتحان القدرات المناسب لي.. هـم في امتحان الجسد والقدرة الجسدية.. وأنا في امتحان الفـن..

والقدرة الفكرية.. وسنلتقي على المصاطب بعد أيام.. ويحكي كل منا حكايته للآخر.. ماذا فعل..؟..

كانوا يحكون عن فلان الـذي ارتعـدت فرائصـه وانسحب من على حافة هذا العمق الشاهق.. وفـلان الـذي سبح الغطاسون خلفه لينقذوه من الغرق بعد أن ألقى نفسه في مغامرة غير محسوبة وراح يستجدي الأنفاس وقد وجد نفسه متورطًا في مياه عميقة..

ورحت أحكي لهم عن رسمي.. لـم أتغلـب علـى فرحتي في اليوم الثالث ويد المشرف تمتد نحـوي ببطـاقتي نجاحي في قُدرات الفنون والعمارة.. كانت بطاقات قليلة تلك الناجحة لدرجة أن الرجل (فَردهم) أمامه.. ليـرى الـداخل صورته ويستدل بها على بطاقته.. وبذلك أعفـي المشـرف نفسه من البحث والإجابة عن أسئلة العشرات الذين يصـلون تباعا بحثًا عن أسمائهم في لائحة النجاح..

هتفت بسذاجة الفلاحين وأنا أرى صورتي..

- أنا أهه.. صورتي.. أنا نجحت..

وكأني سبقت (يونس شلبي) في البلاهة عندما ابتسم الرجـل ومد لي يده بالبطاقتين.. لقد كانت ابتسامة امتنان وإعجاب.. عرفت ذلك عندما علمت أنه قلما يعثر أحدهم على بطاقتين.. لقد تحققت نبوءة حماتي الطيبة.. وفَرحتْ بي وأنـا أمسـك بالبطاقتين واقفًا أمامها بالمطبخ.. أتأمل صورتي:

- بس يا مرات خالي الراجـل المصـوراتي مطلّـع صورتي وحشة قوي..

قالت لي بخفة دم:

- هو يا ابني الراجل جاب حاجة من عنده ؟..

وصارت مثلاً " على رأي القاص الشاب إبراهيم الغـازي " طالما تذكرته مع زوجتي عندما تهيم في ذكـر أمهـا التـي توفيت بعد أكثر من عشرين عاما من هذا التاريخ وشـاهدت قبل وفاتها أبنائي الذكور الثلاثة من ابنتها.. ثم ريم المولودة منذ عام واحد.. (وقتها)..

ليلتها.. خالي تولاّه الحزن مني..

كنت أجلس على منضدة الطعام أملأ استمارة مكتـب التنسيق ذات الخمس وعشرين خانة.. فملأت سـت خانـات فقط..

- فنون جميلة / عمارة - القاهرة .
- فنون جميلة / عمارة - الإسكندرية .
- فنون جميلة / فنون - القاهرة .
- فنون جميلة / فنون - الإسكندرية .
- كلية الفنون التطبيقية .
- المعهد العالي للتربية الفنية .

- يا بني.. اكتب حقـوق.. وآداب.. وكليـة تربيـة.. ومعهد ألسن.. املأ.. املأ الخانـات.. مـا حـدش ضامن..
- طالما لا أرغبهم.. فلن أكتبهم..

هكذا رددت عليه.. موقف.. " واحد مفعوص بياخد موقـف "..

لقد تذكرت سوء هذا الموقف.. وصحة موقف خالي عندما استلم كل أبناء القرية بطاقات ترشيحهم ما عدا أنـا.. لقد سافروا جميعا.. ما عدا أنا.. لم تصلني بطاقة الترشيح.. لذت إلى البكاء.. والسير ليلاً في حديقة الجوافة التـي تقـع على بعد مائة متر من منزلنا.. وعندما أتعب من البكاء ألجأ إلى الغناء.. ولم أجد سوى أغنية في يوم.. في شهر.. فـي

سنة.. المعبرة عن آلامي.. رغم اختلاف طبيعة آلامي عـن آلام عبد الحليم حافظ.. فهو يغني لنفسه قبل أن يموت.. وأنا أغني لنفسي وقد مت فعلاً..

أين سأذهب ؟.. هل سأعيد مذاكرة الثانوية العامة ؟..

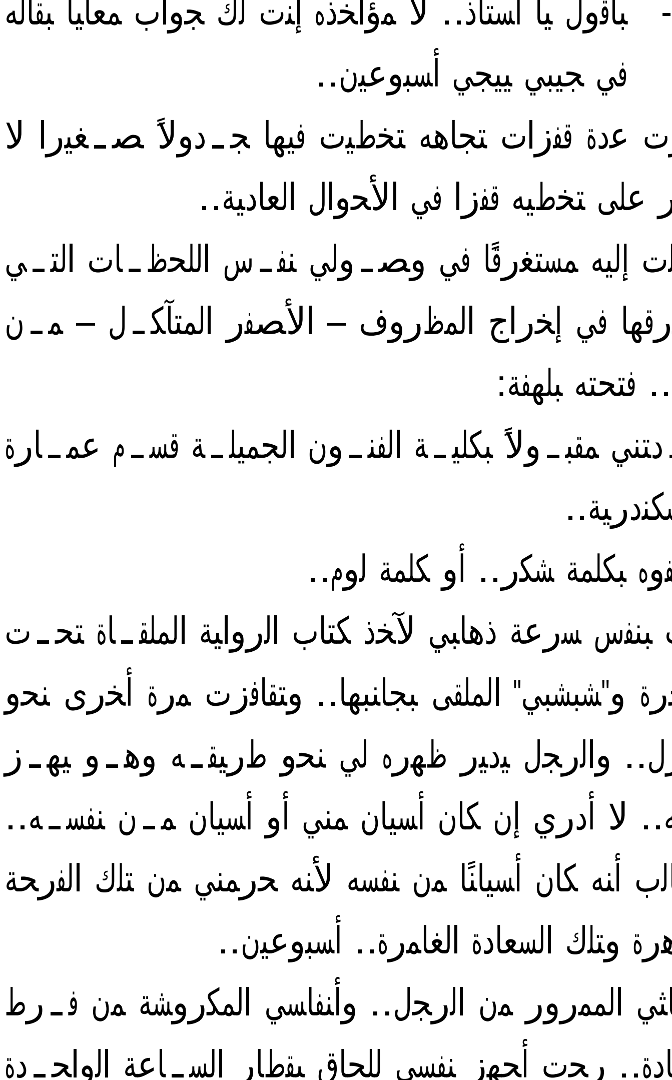
لا.. هناك حل آخر.. سأنتسب.. الانتساب إلى كليـة الآداب هو المخرج.. أقرب شيء إلى نفسي هو الأدب.. فأنا أكتـب الشعر.. والقصة.. يمكنني التخرج من الآداب.. وممارسـة الرسم كهواية بجانب الأدب.. ارتحت لذلك.. ورحت أسـأل عن الطريقة التي أنتسب بها.. وجلست في حديقـة الجوافـة أنهي رواية لأجاثا كريستي كنت مشدودا إليها..

كنا في العاشرة صباحا.. عندما ألقى علـي السـلام الشـيخ مجاهد شيخ الغفر..

- إزيك يا أستاذ..

- ا يسلمك.. اتفضل..

وسار خطوات قليلة.. ثم عاد كأنه تذكّر شيئًا ووضع يده في جيبه وقد تدلى فكّه من الخجل الذي ناله من حالـة النسـيان التي تردى فيها تجاهي..



- بأقول يا أستاذ.. لا مؤاخذه إنت لك جواب معايا بقاله في جيبي بيجي أسبوعين..

وقفزت عدة قفزات تجاهه تخطيت فيها جدولاً صغيرا لا أجسر على تخطيه قفزا في الأحوال العادية..

وصلت إليه مستغرقًا في وصولي نفس اللحظات التي استغرقها في إخراج المظروف – الأصفر المتآكل – من جيبه.. فتحته بلهفة:

وجدتني مقبولاً بكلية الفنون الجميلة قسم عمارة بالإسكندرية..

لم أتفوه بكلمة شكر.. أو كلمة لوم..

عدت بنفس سرعة ذهابي لآخذ كتاب الرواية الملقاة تحت الشجرة و"شبشبي" الملقى بجانبها.. وتقافزت مرة أخرى نحو المنزل.. والرجل يدير ظهره لي نحو طريقه وهو يهز رأسه.. لا أدري إن كان أسيان مني أو أسيان من نفسه.. والغالب أنه كان أسيانًا من نفسه لأنه حرمني من تلك الفرحة الظاهرة وتلك السعادة الغامرة.. أسبوعين..

وبلهاثي الممرور من الرجل.. وأنفاسي المكروشة من فرط السعادة.. رحت أجهز نفسي للحاق بقطار الساعة الواحدة

الذي يقلع من محطة " سخا " في هذا الموعد ولـم أنـس أن أضع الرواية في الشنطة لأكملها في القطار..

راح أبي وأُخوتي يضعون أيديهم في جيوبهم بحثًا عن المال وهم يراقبونني أتحرك كالمخبول..

مجموع ما في المنزل ثمانية جنيهـات ونصـف الجنيـه.. بركة..

لكن أخي الأكبر قال لي:

- سألحق بك.. سأبيع عجلاً في سوق الخميس وآتي لك بثمنه.. أكثر من سبعين جنيها..

ولحقت بالقطار.. ولحق أخي بي بعد أيام..

وكانت فلوس العِجل بين أيدينا مع ورقة وقلم نخطـط بهمـا لبداية رحلة طويلة تبدأ الآن لتخريج مهندس معمـاري مـن كلية الفنون الجميلة.. تقول أجندة السـنوات أنـه يجـب أن يتخرج عام ١٩٦٨..

وهذا ما حدث..

ولكن.. ما أقسى أن يموت الأخ في يوليه ٦٩ ويلحق به الأب في نوفمبر من نفس العام حزنًا عليـه.. هـذا هـو الظـلام الدافئ.. الحقيقي.. في حياتي..

أنا لم أختر طريقي..

ربما اختاره لي خالي..

ربما اختارته لي نومتي القسرية في امتحان مادة الطبيعة..

ربما اختارته لي زوجة الغفير مجاهد لأنها لم تغسل صديري زوجها بما فيه من مظروف أصفر..

ربما اختارته لي – ويا للعجب – رواية أجاثا كريستي التـي راق لي أن أقرأها في ظل شجرة الجوافة وفي هذا المكـان الذي سيمر به الآن الغفير مجاهد..

وربما اختاروه لي جميعا.. لأحمل في نفسي فيما بعد قناعـة أن المرء ليس من صنع نفسه بقدر ما هو من صنع القدر..

كان من الممكن أن يذهب مستقبلي ويلقَى بـه فـي الخلاء مع مياهٍ عكِرة لصديري مغسول توا به ورقة تعنـي الشيء الكثير لصاحبها.. لم يكن – هذا العالم – سيبكي لهذا التفريط الذي سيجعله يخسر مهندسا معماريا مثـل " فرانـك لويد رايت ".. أو: " كوربيزييه ".. فأنا لا أرقى حتـى إلـى مستوى تقديم فنجان القهوة لأحدهما، ولكني كنت سأخسر كل ما حدث معي وحدث لي.. تذكرت كـل هـذا وأنـا أدرس العمارة.. ثم وأنا أمارسها وأكسب قوتي منها.. وأختزن كـل

هذه الذكريات الجميلة طوال رحلتي معها.. وأجعلها هـدفي المنشود وأنا أشاهد روعة المدن التي عمرت بأيدي أصحاب المواهب عندما تجولت في أكثر من اثنتي عشـرة عاصـمة أوروبية تلازمنـي شـهقتي.. وتكّـات الكـاميرا.. وتنـدر الأصدقاء.. لأنهم يهيمون في أوروبا وأمريكا بأشياء أخرى.. مخالفة.. أقصد.. مختلفة..

*   *   *

(٣)

متزوج.. ويعول

هذا ما تقوله البطاقة الصماء أمام رجال الإدارة.. أما ما تقوله الحياة فهو شيء أكثر بهجة.. وأكثر تفصيلاً.. وأكثر سخونة.. وأكثر إشراقًا..

فقد وقعت مثل غيري من المراهقين تحت وطأة وهم جميل اسمه الحب الأول.. لم أقع مرة واحدة.. ولكني وقعت عدة مرات كانت في الغالب برغبتي.. إذ ربما كان الأمر مرتبطًا في ذهني بادعاء ارتبط في أذهاننا أنه ضرورة.. الادعاء يقول بأن الحب هو المغذّي الرئيسي لوجدان الفنان.. وكنا نطرح مغامراتنا على بعضنا البعض.. ومن لا يحمل تجربة فعلية كان من السهل عليه أن يؤلفها.. وكنت أكره الكذب والتأليف، وكنت أكتشف أن من يسمعون الكاذب لا يواجهونه بكذبه.. بل يهمسون بذلك لبعضهم البعض بعد انصرافه.. فحمدت ا أنني لم أقع في هذه النقيصة..

وكما كانت " مي " هي الأنثى الوحيدة وسط رهط من الأدباء العباقرة..

فقد سجل صالونها بنبضات قلوب أكثرهم تتجه إليهـا بالحب، كانت " زينات " بنت معاون الزراعة أنثى وحيدة في الثانية عشرة مثلنا يفوح منهـا العطـر وسـط رهـط مـن المراهقين الذين لم يمدهم القدر بواحدة مثلها تجلس بينهم في الدرس الخصوصي الذي كان يجمعنا بعد المدرسة في منزل الأستاذ محمد كمال..

كانت " الكارتّة " تنتظرها بالسائق خارج الدار.. وكنا نودعها بنظرات الولـه وهي ترتقي سلم العربة في رشاقة.. ربمـا كان ما زارني من إحساس نحوها بالحب سببه الغيرة من أن بعضنا من الرفاق أفصح أمامنا عن حبه لها..

وربما كان خروجها من بوابة سـور منزلهـا لمصـافحتي (عندما شاهدتني أمر مستذكرا دروسي فـي كتـاب أمـام منزلها) وحديثها معي ودعوتها لي للجلوس على سور سـلم المدخل العريض هو الذي جعلني أُحس باهتمامٍ منها جعلنـي أفسره على مزاجي ؟..

لقد كانت يومها على طبيعتها عندما أحضرت طوق " الهولا هوب " لتلعب به أمامي.. وكانـت هـذه اللعبـة قـد انتشرت.. وكان قوام نجاح اللاعب فيها يعتمـد علـى مـدة

الاحتفاظ بهذا الطوق الخيزراني الدائري وهو يـدور حـول جسده لأطول مدة.. لقد كان هذا الأمر يسـتدعي أن يتمايـل اللاعب بجذعه ليدفع الطوق إلى الحركة والدوران ثم يعمـل على ثباته في منطقة البطن حتى لا يسقط..

كنت رغم خفتي أفشل في عدم الاحتفاظ بالطوق فـي وسطي مرات كثيرة.. وكنت أنتزع ضحكاتها الرشيقة.. تلك الضحكات التي كانت ترن في أذني وأنا نائم فأصحو باحثًـا عنها.. ورأيت أنني أصبحت مغرما حتى بصوت أي " كارتة " لا تحمل بشرا.. ما بال إذا كانت " كارتة " قادمة من بعيـد بها شبح لفتاة يجاورها سائق.. لم أكن أفهم سببا لتلك الخفقـة التي تعتري قلبي.. وعندما قرأت فيما بعد الكلمة المثلى فـي حديث الحب والتي تقول (وخفق قلبه لها بالحـب) أعلـم أن فعل (خَفَقَ) هذا يعبر عن الشيء الذي لكزني في موضع ما من الصدر رغما عني..

لم أفاتحها بحبي لسبب واحد هو أنني لم أكن أعـرف معني المفاتحة.. وضرورتها.. وأهميتها.. ولكني كنت أتميز غيظًا إذا قال أحد الرفاق إنه يحبها.. ما بالـك إذا ادعـى – كذبا – أنها تبادله الحب.. كان ينتابني الحزن الذي يصل إلى

درجة الاكتئاب.. ولا أستطيع أن أوضح لمن حولي: لماذا أنا حزين ؟..

قال لي فتحي يوسف – وكان معنا في الدرس ولكنه يسـاعد والده في أعمال النجارة – إنه ذاهب إلى فيلا المعـاون مـع والده لإصلاح بعض الأخشاب.. تمنيت أن يأخـذني معـه.. خفت أن تكشفني لهفتي التي كتمتها مع طلبي لكني لم أستطع أن أكتمها بعد عودته.. عنـدما راح يجيـب عـن أسـئلتي المراوغة.. ماذا أكلت ؟.. ماذا شربت ؟.. هل كانت موجودة ؟.. وعندما فهمت منه أنه لعب معها بطوق " الهولا هوب " ركبني الحنق واغتظت.. وعندما قال لي إن هذه البنت ليست مؤدبة ركبني العفريت.. ظننت أنها حاولت استدراجه لتقبيلها ولكنه لم يتجه بحديثه نحو ذلك، بل قال إنه وهو يتبادل معها الفوازير قالت له عن فزورة سافلة..

لم أفهم ما هي هذه السفالة إلا عندما قال عنها إنها وصـف للأعضاء الجنسية.. حاولت ألا أصدقه.. ولكنه أكد لي ذلك.. وعندما سألته عن إجابته أمامها لتلك الفزورة.. قال لي إنـه انسحب خجلاً وإنها كانت تطارده بالضحك عليه لأنه فشـل في فك لُغز الفزورة..

لقد كان فتحي هذا رقيقًا مؤدبا ضحوكًا ولكنه عندما سقط في حب فتاة جميلة من فتيات القرية كان عندما يتذكرها أمامي يبدو على حال غير الحال مما جعلني التفت إلى قـوة هذا الشيء الذي اسمه الحب.. وعندما قال لي إنه سـيفاتحها بحبه تعجبت: ماذا سيقول لها..؟..

جاء فقال لي: أنا قلت لها: أنا باحبك.. ثم صمت قليلاً.. حتى ظننت أن صمته هو الكسوف من أن يقول لي إنها صـفعته على خده.. ولكنه قال إنها تهللت عندما عرفَتْ أنه يحبهـا.. وقالت له:

- لو انت بتحبني قيراط.. أنا باحبك ٢٤ قيراط..

فيما بعد تمكنت من تفسير هذا الرد العاطفي الريفي ومـدى ارتباطه بالأرض.. فمساحة الأرض التي يملكها الفلاح هـي كل الرزق الذي ناله من ا .. وكلما زادت المساحة كلما كان ذلك من زيادة رضا ا عليه.. والبنت تريد القول " إن حبي لك واسع المساحة ".. هذا هو أقرب تعبير وجدته تلك الريفية الصغيرة لتؤكد لحبيبها قوة حبها.. ومع هذا لم أجد فتحي – عندما كبرنا – يجلس في كوشة زفافه بجانب نفس الفتاة..

(لماذا.. لست أدري ؟..)

هل تخاصما..؟.. هل غضب منها أو غضبت منه ؟.. هـل اصطدم بنفس حزني من زينات لقلة أدبها..؟..

كنت بعد الفزورة أراقب زينـات دائمـا بنظـرة جديـدة.. ويأخذني الاستغراب.. إنها لم تتلفظ ذات مرة بلفظ خـارج.. وهي كما هي محتشمة في ملابسها.. فمـاذا عـن حـديث الفزورة الذي أرق مضجعي ؟..

وفجأة سألتها: الفزورة اللي فتحي يوسف فشل في حلها.. أنا كمان فشلت زيه..

كانت قد نسيت.. فتساءلَتْ..

- فزورة.. أي فزورة ؟..
- تريت.. تريت.. تريت تاللى..

قالت: آه.. هو قال لك..؟..

ثم واجهتني بعين ناصعة جميلة وفم دقيق ضاحك:

- الجنايني لما يدخل الجنينة بيحب يغني للفواكه.. للتين لما يفتّح.. والموز لما يتبرم.. والعنـب لمـا يكبـر ويتدلى..

قالت ذلك بسرعة وبلا اهتمام متعجبة من جهلنا ثـم عـادت للاهتمام بما بين يديها من كراسات..

كنت قد عرفت أن فتحي حكي للرفاق عـن هـذه الفـزورة واقتنعوا جميعا بمحتواها السيئ.. وبعد تعرفي علـى الحـل رحت أوبخهم على سوء ظنهم وأنهـم لا يفكـرون إلا فـي الأشياء السيئة.. وأنها ملاك تغنى للحدائق والفاكهة.. وهـم يفسدون الجمال الذي في حديثها بخبثهم وجهلهم..

وعدت أحبها من جديد..

إلى أن رحلَتْ.. دون أن تعلم عن حبي شيئًا..

لقد تذوقت طعم الحب.. ووجدت أنه يختلف عـن كـل المذاقات الأخرى.. وأن عذابه لذيذ.. وألمه مطلـوب.. وأن هذا الألم الرقيق يستطيع الشاعر أن يضع أيدينا على عمـق جروحه وأنه ليس كأي ألم، وعندما أجد نفسي أكتب شـعرا حزينًا أخاطب فيه فتاة هائمة في خيالي أعرف أنني قد وقعت فيما يقع فيه الشعراء من وهم العذاب وتجسيمه بـلا مبـرر سوى حب العذاب.. عذاب الحب.. الحب الذي فـي خيـال المحب..

قد كان في عمري فتاه

وردية الأحلام

حالمة الشفاه

أعطيتها ما كان عندي

من بقايا لهفةٍ

وددت لو تحيا معي

في قصةٍ..

لكنها كانت سراب

لاحت بدربي

ساعة..

ثم انقضت

لاحت بعمري

فجأةً

ثم انتهت

آهٍ وماتت لهفتي في عينها

آهٍ وماتت قصتي.. في مهدها

أما عن عذاب الشعراء الذين تاهوا في الحب وتاه عنهم الحب فقد وجدت أنني أملك منه ما يكفي لكتابة عدد من القصائد:

أنا يا فتاتي رجع ناي

قد تهادى

في متاهات العذاب

أنا يا فتاتي بسمةٌ كَلْمى

تولاها الضباب

أو عندما أقول:

(قد كنت أسعى للرضا يوما

فخانتني خطاي

وتسمر القدم الرقيق

ذبابة صرعى

بأهدابِ الطريق

فنـزعت من صدري

نداء للقدم:

عد يا قدم

عد للوراء

عد فالأماني في عيوني

كالهباء..)

أيها الشعراء:

لماذا يتحول عطر الحب لديكم إلى كل هذه المشاعر المليئـة بالحزن... حتى لو كنتم قد نجحتم في استنشاقه.. ؟..

وصار الانتقال من حب إلى حب.. يقترب من مهمة الانتقال من عام دراسي إلى عام دراسي آخر.. وأبدا لم أجـد خفقـة القلب التي كانت توقظني من النوم وأنا صغير.. ولكني كنت على أهبة الاستعداد للبحث عنها ومطاردتها حتى تطاردني.. أو تطردني..

وجدتها في اتساع العيون ورزانة المسير وبهجة القـوام في فتاة سكنتُ بجوارها.. كانت تلقى على السـلام بإيمـاءة رقيقة من رأسها الصغير المتوج بشعر أسود فاحم ناعم تعقده تلاً عاليا فوق هامتهـا وهـي تتبختـر بـه فـي شـارعنا بالإسكندرية.. وذات مرة كانت تدعوني عيناها أن أنتقل من رصيفي إلى رصيفها الذي تسير عليه.. وأخذني الاضطراب والخجل فأنا أحمل المسطرة " الحرف تي " وفـي طريقـي للكلية.. وهل يجب أن يمارس الطلبة لقـاءات الحـب فـي الطريق..؟.. فتجاهلتها.. وبعدها.. قال لي صـديقي الـذي يسكن بجوارنا ويعرفني ويعرفها ويراقبني ويراقبها..

- إنت قِفْل.. البنت دي يئست منك..

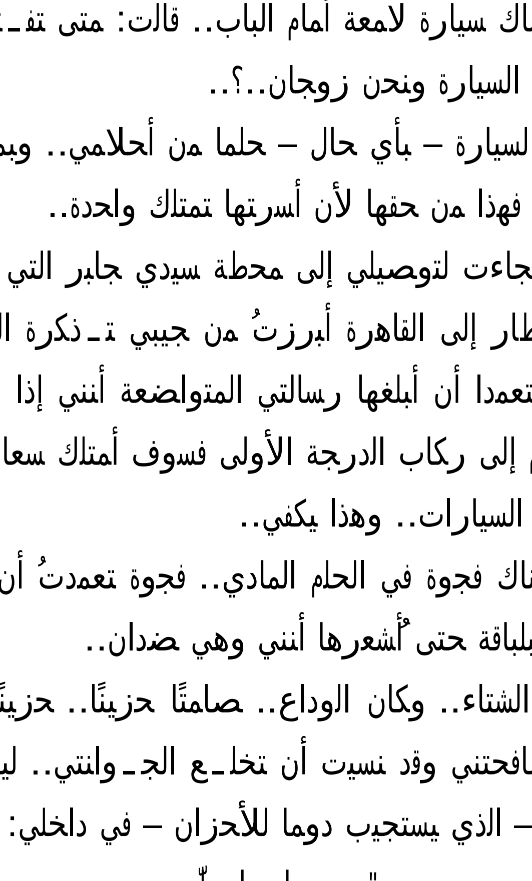
وانتقلت أنا إلى مسكن آخر.. ورحلت من الحي دون أن تعلم هي أنني في ضيق من نفسي لأنني لم أستجب لخفقة صغيرة

كان من الممكن أن يقويها اللقاء وتضخمها الكلمات.. ولكني لم أفعل.. لماذا.. لا أدري ؟..

أما الزميلة التي كنت أسبقها بعدة سنوات والتي تحدثنا – هذه المرة – في مستقبلنا فكان لواجـب زيـارة أسـرتها وواجب الكرم من والدها.. الفعل السيئ في عقليتي الريفيـة المغلقة.. لقد بلغ كرمه أن يقدم لي كأسا من الخمر على مائدة الغداء منتقيا صنفًا خفيفًا من عدة زجاجات توضـع أمامـه باهتمامٍ يوحي أنه معتاد على ذلك..

كنت قد تخرجت.. وكان الأفق أمامي مضـببا فلـن نتجه إلى وظائفنا بل سنتجه إلـى طـوابير الجنـود الـذين يجهزهم عبد الناصر ليوم الثأر واسترداد سـيناء السـليبة.. وكان شعار " لا يوم يعلو فوق يوم المعركـة " يشـير إلـى وجوب أن تنخفض أيامنا إلى أسفل.. وأيامنا القادمـة هـي أحلامنا الناضجة التي بدت كثمار فعلية فوق أشجار حقيقيـة ولكن من الصعب قطافها..

كانت هي تتحدث عن السيارة وأنا في طريقي إلى توصـيلها إلى دار المغتربات التي تقيم فيها بعد خروجنا من السـينما..



كانت هناك سيارة لامعة أمام الباب.. قالت: متى تفتح لي مثل هذه السيارة ونحن زوجان..؟..

لم تكن السيارة – بأي حال – حلما من أحلامي.. وبما أنها تحلم بها فهذا من حقها لأن أسرتها تمتلك واحدة..

وعندما جاءت لتوصيلي إلى محطة سيدي جابر التي سأستقل منها القطار إلى القاهرة أبرزتُ من جيبي تذكرة الدرجة الثالثة متعمدا أن أبلغها رسالتي المتواضعة أنني إذا انتقلت ذات يوم إلى ركاب الدرجة الأولى فسوف أمتلك سعادة من يمتلكون السيارات.. وهذا يكفي..

كانت هناك فجوة في الحلم المادي.. فجوة تعمدتُ أن أمتطي فراغها بلباقة حتى أُشعرها أنني وهي ضدان..

كنا في الشتاء.. وكان الوداع.. صامتًا حزينًا.. حزينًا عندي لأنها صافحتني وقد نسيت أن تخلع الجوانتي.. ليتحرك الشاعر – الذي يستجيب دوما للأحزان – في داخلي:

" مدت إديها سلّمت

فيها الجوانتي

رابع شبح من عندِك إنتي

حاجز ما بين كفّك وكفي

أخذ الحرارة من ضميري

ومن عواطفي

لكن رماها تحت رجلك

يا حبيبتي.. "

ولم ينغلق قلبي رغم ذلك..

استجاب للحظٍ فاتنٍ.. وعينين جريئتين.. وخفة دم واضحة لفتاةٍ جاءت إلى منزلٍ كنت أزور أهله الذين يمتون بصلة قرابة لأمي في " إمبابة ".. كان صاحب المنزل يعمل مقاولاً وهو صاحب القرابة.. وكان قد سعِد عندما رست عليه بعض أعمال إنشاء مبني مديرية كفر الشيخ عام ١٩٥٤ حتى يكون قريبا من قريبته، ويزورها.. تكررت زياراته تارة مع زوجته.. وتارة مع ولديه.. كان أحدهما مدرسا.. والثاني " سائق قطار ".. وتعودنا بعدها أن نبادلهم الزيارات إلى أن مات الرجل.. وراق لي بعد تخرجي أن أصنع واحدة من تلك الزيارات، وأنا لا أعلم أنني سأقابل ذلك الملاك الذي صنع البهجة حوله ووزعها على كل الناس.. وصنع أضعافها في داخلي.. تُرى من هذه الفتاة الصغيرة.. ؟.. سبحان الخالق الوهاب.. لم ألتفت إلى إصبعها حتى أعلم أنها

متزوجة وأن ذلك الشاب الحصاني الجسد الذي جاء ليصطحبها هو زوجها لاعب الكرة.. وأنها إنما جاءت على عجلٍ لتصافح جارتها – زوجة قريبي – بعد أن ارتدت ملابسها قبل زوجها الذي سيمر الآن ليؤدي سلاما مثلها وهما في طريقهما للتنزه..

من المؤكد أنني لم أحظ منها بنظرة اهتمام.. فكل الشواهد تؤكد أنها لا لوم عليها في ذلك.. كذلك من المؤكد أنها خرجت وقد تناثرت دعاباتها وضحكاتها على الأرائك وكل الجدران فطالني ما طالني منها لتنغرس في وجداني ندما لكونها ليست لي.. وقهرا لأنني لن أراها أبدا إلا صدفة أو بمخططٍ لا أقوى على صنعه.. وعاودتني الخفقة لتصل إلى أعصاب وجهي ارتعاشًا عابرا.. وتصل إلى بئر الشعر في وجداني لتملأ منه عدة قِرب قوامها الأسى والحزن..

يا شَعرها..

يا خيوط حرير مغزولة

في عز النهار

يا عيونها يا حلوة يا مليانة دفا

يا مسبلين على شط بحر

ما لوش قرار

يا شِفتين..

يا مخدتين.. لملايكه

لسه صغيرين

غريب.. وجي من السفر

شايل هموم القلب

حاير بالأنين

حيقول لمين..

غير الشفايف

والخدود..

يا بحر سحر.. ما لوش حدود

ألاقي فين بس المراسي

والأمان..

وأنا وشراعى حيرانين

في بحور غريقة

من زمان..

وهكذا تمتعت إحداهن دون أن تدري بقصيدة " عصماء " من شاعر مجهول مر بها عابرا أو مرت به عابرة.. ومضـت دون أن تعلم من هو وتركته متورطًا في علمه.. وحلمه..

لقد برز لي هذا الوجه، وذلك الموقف وأنا أُعالج حالة الحب التي وقع فيها "أحمد موافي" في روايتي " الظلام الـدافئ ".. لقد قمت بخلط العناصر الكيميائية بشكل آخر لأحصل علـى معدن جديد ذي قوامٍ مخالفٍ يقبله القارئ.. واختـرت لهـذا السهم المارق اسما من عندي لأنني لم أعرف اسمها ووجدت أن " رئيفة" هو الأنسب لما به معني من الرأفة التي افتقـدتها عندما نفذ سهمها بنعومة ومرق دون استئذان في حناياي..

وكان الشفاء سريعا.. ولعله حدث بعد أن عولجت بقصـيدة سال فيها همي ولذلك فالقصائد رزق لكم من عند ا كبيـر أيها الشعراء.. الحزانى..

ولما كانت هناك واحدة ألبسوها دبلة الخطوبة رغما عنهـا.. فإن ما كرهتْه في إصبعها من رباطٍ تمنته أن يكون لها فـي ذلك الشاب الذي يتحدث بعفوية وتسمعه من خلـف حجـاب عندما يحاور أستاذه في كافة قضايا الفكر والشعر.. وأستاذه

الذي هو والدها يقوم بنفسه كرجلٍ محافظ ليأتي بالمشـروب لضيفه.. وعندما تتكرر الزيارة في غير حضورها تتقصـى بطريقتها سير الأحداث.. وعندما تعلـم أن هنـاك ميعـادا مضروبا تتلكأ حتى تسمع بعض ما سوف يدور فيه.. لم يكن بابها يسمح لها أن تراه في جلسته.. وتمنت أن يحيـد عـن الجلوس في هذا المكان في الزيارة القادمة.. ولكنه متمسـك به.. لا تدري لماذا ؟.. وهي لا تعلم أنه كـان يجيـد آداب الضيافة ضيفًا أو مضيفًا، ومن اللائق أن يختـار الضـيف المكان الذي يحول بينه وبين مشاهدة الساكن أو المتحرك من أهل الدار..

التقت به عند المصعد.. عرفته من صـوته وهـو يحـدث الحارس:

- أنت فلان ؟..
- أنا فلان..
- وأنا فلانة.. ابنة فلان..

اعتدل في وقفته.. وتلعثم.. ولكنه شاهد الدبلة.. فانطوى على نفسه..

وحتى لا تصعد معه اخترعت لنفسها مشوارا صغيرا ليدخل قبلها.. وبعد حين وعندما دق جرس الباب عرف أنهـا هـي التي ستدخل الآن.. ولم يكن هناك بد مـن أن يقـدمها لـه أستاذه.. وصافحها كأنه يراها لأول مرة.. نوع من التخابـث البريء.. وطوته الحياة عندما أرسلوه إلى الجبهة ليجـد أن صورتها تحوم أحيانًا حول ذاكرته.. وسرعان ما يطردهـا.. إذ ماذا يفيد الخيال في قضـية تـم إسـنادها إلـى الأمـر الواقع..؟..

لم يكن يعلم أن التفاصيل ستوضع أمامـه بعـد عمـرٍ مـن الزمان، ليعرف أنه كان وللمرة الأولى الطرف الظالم بعد أن كان مظلوما من كل الأطراف... الناعمة..

لقد هبت عاصفة من الماضي وألقت بأوراقٍ ذابلـة أمامه، حاول أن ينفخ فيهـا روح أوراق الشـجر الناضـج فأجهده النفخ وكادت تنقطع أنفاسه.. وتتقطع سـبله.. فـآثر السلامة ليعرف أنه نفس الشخص في كلا الحالين.. ظالمـا.. أو مظلوما..

" *والفرق إيه بين إني أموت بِأَديه*

أو إنك بِظُلمك تقتليني

خَففي وطْأك يا دنيا

لإني عارف إن الرضا

دايما.. ناسيني.. "

قالت أمي:

- شايفاك نايم على موضوع بنت خالك..

سألتها:

- موضوع ؟.. هو فيه موضوع ؟..

قالت بكل بساطة:

- إحنا متكلمين فيها وإنت في إعدادي.. وأنت في ثـانوي.. وإنت في الكلية..

سألتها:

- إحنا.. إحنا مين ؟..

أجابت بكل بساطة:

- أنا.. وأبوك..

وراحت تعدد مناقب ومحاسن أسرتها.. وجدها لأمها مفـتش الري الكبير الذي يشبه الخواجات في طلعته والملائكة فـي بسمته.. ثم أضافت محذرة:

- هي حتتخرج السنة دي.. لو جالهـا عـريس عمـر باباها ما حيعرفنا..

عدت إلى الجبهة دون أن يشغلني كلام أمي.. أين نحن مـن الزواج ؟.. مجازفٌ من يقدم على الزواج ونحن فـي هـذا الحال.. السنوات تمر بما فيها عام الحسم الساداتي الزائف.. المناخ يوحى باستمرار حالة اللاحرب واللاسلم.. ونحن إلى ما شاء ا " باقون ".. وفي الكاكي " مغلفون "..

لم أكن أعلم أن عقلي الباطن في حالة حوار معـي.. حـوار صامت ولكن فعله صاخب.. كنت أبحث عن مدخل.. كيـف أتسلل إلى منزلهم لأراها.. وقبل أن أجهد عقلي في ترتيـب زيارة جاءني الفرج الإلهي في شكل مأموريـة لعـدة أيـام بالقاهرة.. رأتني هي ولأول مرة بملابس الضباط.. ويبدو أن هذه الهيئة الرسمية في الملابس كانت لها وقعها فـي هـذا الزمن.. لا أقول في نفوس الفتيات فقط ولكـن فـي نفـوس الناس، فرغم النكسة التي مازال صـداها يطـن فـي آذان ووجدان الناس إلا أن أملهم في الخلاص كـان يتمثـل فـي ضباط وجنود الجيش..

كانت سهرة المساء تنعقد بعد تناول العشاء.. وكنـتُ أرى خالي يسير بي برفق في حديثه معي قاصدا أن يعـرف عني أشياء كثيرة من خلال أشعاري، وكنت أعرف ما يرمي إليه، فقد تعلّم من خلال عمله في نيابة أمن الدولة أن الكتاب أو القصيدة أو الديوان أحيانًا تكون في نظر المحققين كالقنابل والمدافع الرشاشة، وأنه كثيرا ما رأى بعض الشـباب مـن كتاب القصة والشعر يواجهون المهانة لسقوطهم في غوايـة معارضة الدولة.. أما ما كنت أسمعه همسا منه من المهانـة التي يلقاها الكبار من الكُتّاب يجعلني أغض الطرف عن لومه لهم لتعريضهم أنفسهم للمساءلة من أجل سطور كتبوهـا أو أبيات ألّفوها ضد النظام قائلاً لنفسي إن هذا الكاتب إنما فعل ما فعله وكتب ما كتبه وهو يعلم أنه يسير في حقل من الألغام ومع هذا فقد سار برغبته، عكس كتّاب السلطة الذين يقدمون للناس مقالاتهم المخدرة وهم أنفسهم مخدرون بكـل أنـواع المغيبات.. وشتان بين كاتبنا الأول ذلك المقتحم وكاتبنا الثاني ذلك الملتحم..

استخدمت الخبث في انتقاء قصائدي التي سيسمعها هو أمامي والتي ستسمعها هي من غرفتها المطلة على الصـالة حيـث تستعد لامتحان بكالوريوس التجارة..
لم أشأ أن أجنح ناحيـة القصـائد الغزليـة التـي تفضـح غرامياتي.. ولم أشأ أن أجنح ناحية القصائد الوطنيـة التـي تحمل رائحة الرفض والاستهجان كتلك القصيدة التي جـاءت على لسان فلاح مات في سيناء ويؤكد أنه ضـحية تأشـيرة بلهاء حركته نحو الحرب بلا ترتيب فأودت بحياته..

أنا مت يا شُعرا

أنا مت
والبوم على راسي المدشوشة
بيشيل ويحطْ
علشان أنا شلت سلاحي
ورحت
وياريتني يوميها أنا كنت لوحدي
أنا كنت حاعود
لكن بعتوا معايا (البيه)
(والنجمه).. والقلم المحشي بارود

استندل ورماني وعاد

لجل الأولاد

وكأني ما ليش في الدنيا ولاد

نايمين: أعواد.. أعواد.. أعواد

يستنوا أبوهم.. والسهرة

والعيش الاسود.. وحصيرة

أنا مت يا شُعرا.. وقولوها

علشان أنا قلبي كان مخاص

ومآمن قوي

للتأشيره

لم يكن لي أن ٱُلقى أمامه بهذه القصيدة.. ولكن من الممكن أن (يرتاح) لقصيدة أخرى جاءت على لسان الشهيد هكذا:

أنا ﹺنفْسي أنسج لك من الصبر الحنين

منديلين

تمسحي بيهم دموع الحزن

ع الواد اللي راح

أنا ﹺنفْسي اكتب لك قصيدة

أنا نِفْسي أطبب لك عيون الدمع

والنوح.. والجراح..

يا هلترى حا قدر يا أمي

أصبرك..

واقدر بإيه ؟

والصبر في جراب الزمن

مقفول عليه

يا هلترى تقدر مناديل الكلام

تشد فجرية فَرح من بين ضلام ؟

يا هلترى

يا هلترى

يا هلترى

ما اقدرش اقول يام البطل

غير بس عن حادث جرى

النكسة يامه علمتنا إزاي تكون التضحية

إزاي تصير الناس تراب

تعمي عيون الغدر

في عز النهار

إزاي نكون الفحم

نرمي نفسنا

تِولع مشاعل الانتصار

(إلى آخره)

أو أمر على قصيدة أخرى وجدانية المذاق بكائية الكلمات ليس لها علاقة لا بالحب ولا بالرفض السياسي والمتاعب الأمنية:

يا زهرة يا بنت الطبيعة

ياللي نايمة ع الأمل نومة جنين

أنا أبقى مين ؟..

يا بحر جاري.. وشايل على موجك كرم

ياللي العصا غابت على كتفك سنين

أنا أبقى مين ؟

يا صحاب صاحبتوني زمن

يا حباب عاشرتوني سنين

أنا أبقى مين ؟

يا بلبل الغيط يا مزوق الغيط بالفرح

ياللى الغلابة فكّروا شدوك أنين

أنا أبقى مين ؟

يا ضل.. يا زهر وشجر

يا حب.. يا شوق.. يا حنين

أنا أبقى مين ؟

حاشِد من قلبي الحزين كلمة وداع

وفْ بحر دمعي يا زمن حانشُر شراع

وحسابق الريح والسحاب

وأسيب بطاقة فْ كل باب

مكتوب عليها:

وداع

وداع

العمر ضاع

ومسافر اليوم يا صحاب

(إلى آخره)

وخرجت من السهرة في منتهى البراءة.. لم يبق سوى أن أمسح لهم دموعهم.. ولكني سلّمت أذني بعدها للرجل الطيب الذي صارحني بأنه كان يخاف علي من طيبتي التي يمكن أن تجعلني متورطًا بحب أناس هم في

الأصل ينتمون إلى (الشيوعيين أو الماركسيين أو الإخـوان المسلمين).. وفهمت أن ما جعله يلجأ إلى هذا الخوف بعض خطاباتي التي أرسلها إليه من الكلية متحدثًا بفخر عن نشاطي الأدبي وكيف أن قصتي (بقايا شاعر) فازت بالجائزة الثانيـة في نادى القصة وعلق عليها الكاتب أنيس منصور في جريدة الأخبار..

إذن فقد كان الرجل يقرأ ما بين سطور خطابـاتي حتـى أن حرصه كان يجعله لا يرسل لـي إلا ردا تقليـديا بالسـلام والطيب كما يقولون..

لم يكن في برنامجها في هذا اليوم الذهاب إلى الكلية فجمعنا مع أمها الطيبة نهار جميل رحنا نساعدها فيـه فـي طهي الطعام ونتحدث في شتى الموضوعات إلى أن ذابـت بعض العقد التي تعترض الركض الـذي يجـب أن يكـون طبيعيا في حديث ميسور بين فتى وفتاة.. فرغم القرابة إلا أن التأدب والتحشم الذي يصل إلى درجة التشنج كـان يضـفي مذاقًا من ثقل الدم لجوٍ ملبد بغيـوم مـن التـوجس ليسـت موجودة.. إلا في عقولنا..

كنت أحكي بعض حكايات زملاء معسكري منتقيـا أكثرهـا طُرفة حتى انتزع ضحكات الأم والبنت.. ثـم انتقلـت إلـى المداعبات المقبولة..

كان المذيع في الراديو يقدم حديثًا نبويا.... (عن ابن عبـاس رضي ا عنهما..)

سارعت فسألتها: يا فلانة.. " عنهما " هذه تعود على من ؟

فقالت ببراءة: عباس.. وابنه..

وأخذتني موجه من الضحك موضحا أن إجابتهـا صـحيحة ولكني أضحك على طريقه الإلقاء.. وكأن عباس هـذا أحـد معارفنا.. هو وابنه..

لقد عدت إلى معسكري في الجبهة وخرير مـن النعومـة ينساب في داخلي..

وأحسست أن هناك وسادة حريرية اتكأ عليها قلبي فارتـاح.. لعلها راحة من أنهكه وأرهقه السير في أرض وعرة..

تعودت أن أمارس العبادة بشكل معتدل.. ولكني فـي هـذه الفترة كنت أقسو على نفسي في أداء طقوس العبادة.. ولست أدري ما الذي يدفعني إلى ذلك من وقت لآخر.. ومن المؤكد أننا نحن الجنود والضباط كنا قد تقبلنا وبكل رضا فكرة أننـا

وقود المعركة القادمة.. وكان الرضا بذلك المصير فيه من الإيمان أكثر مما فيه من البطولة..

كان البرد القارص في الجبل المفتوح أكثر منه في أي مكانٍ آخر.. ودفء الفراش عند الفجر كثيرا ما يغرى الكسول باختيار الصلاة في الصباح.. وكان صعودي إلى وجه الأرض من الملجأ المدفون في الأرض والسير في قلب الهواء البارد الراكض حتى الوصول إلى الحنفيات للوضوء بالماء الذي يلهب الأصابع – بردا لا سخونة – كان ذلك المشوار الذي أفعله بحب مودعا فراشي الدافئ يجعلني أحس أنني اقترب من ا شيئًا فشيئًا.. وكانت - بعد الصلاة – أحلى نومة تلك التي أهنأ بها حتى ميعاد الطابور الأول.. كنت أعود من المسجد ضاما ذراعي على صدري وقد خبأتهما تحت إبطي مسرعا نحو الأغطية من البطاطين الصوفية أهيلها على جسدي ورأسي حيث لا أسمع إلا رجع أنفاسي..

تذكرت صلاة الاستخارة..

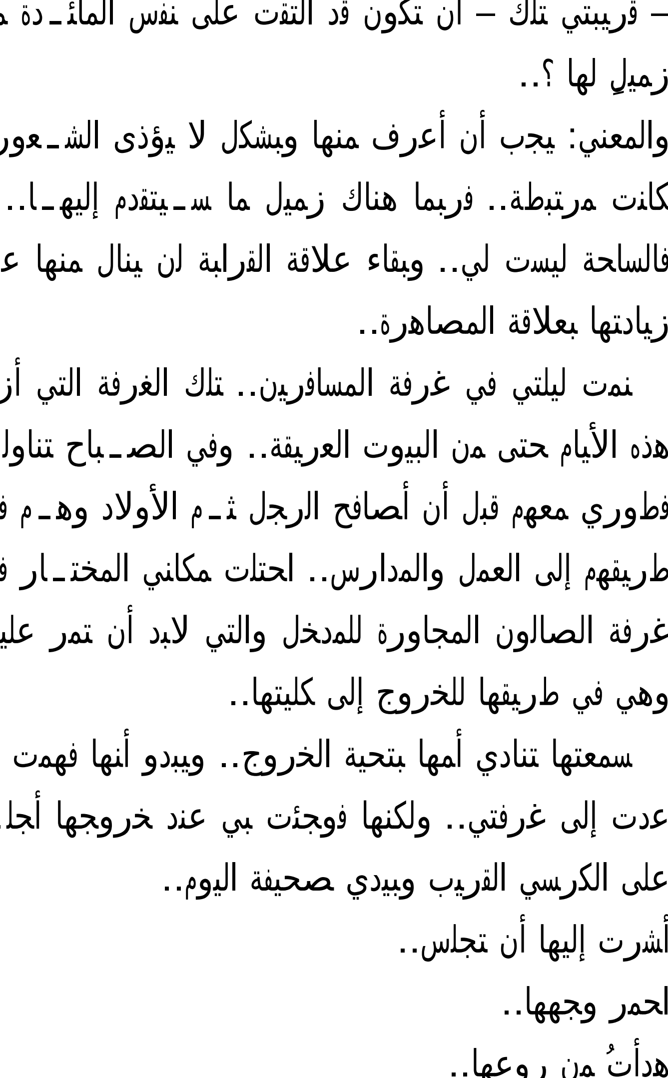
سألت من أثق فيهم من المتدينين للتعرف على تفاصيلها.. معني هذا أنني قررت أن أرى برهان ربي الذي سيدلني على

طريقي.. إن كان خيرا فهناك برهان الخير ورمـوزه، وإن كان شرا فهناك برهان الشر ورموزه.. وطريقي الذي أسأل عنه هو طريق الزواج من قريبتي.. وا .. لقد عـدت مـن عندهم مرتاحا طيب النفس.. مرتاح الفـؤاد.. وكـان مـن الممكن أن يكفيني هذا.. ولكن ماذا لو لجأت إلـى ا ؟.. ألا يمكن أن يكون هناك اختلاف في الطبـاع والطبـائع ؟.. ألا يمكن أن أكون أنا خارج نطاق الاهتمام لديها ؟..

وعندما تمثلَتْ أمامي في الحلم ربوة عالية ذات خضرة يانعة ناعمة تتألق تحت ضوء الشمس.. وعندما شاهدت المسـجد الأنيق شاهق البياض يعلو قمة الربوة.. ثم عنـدما شـاهدت سربا من الحمام الأبيض يهيم حول المسجد.. قمت من نومي منبهرا من سحر هذا المنظر ثم منتبها إلى مغزاه.. فـرقص قلبي من الفرح.. واتخذت قراري حامدا ربي أن ساعدني في ذلك .

وذهبت مسرعا إلى القاهرة..

قلت لنفسي: لقد أعطيت لنفسك الحق أن تتقابل أنت وإحـدى زميلاتك على مائدة اسمها الحب.. ألا يحق لها هي الأخرى



– قريبتي تلك – أن تكون قد التقت على نفس المائدة مع زميلٍ لها ؟..

والمعني: يجب أن أعرف منها وبشكل لا يؤذى الشعور إن كانت مرتبطة.. فربما هناك زميل ما سيتقدم إليها.. إذن فالساحة ليست لي.. وبقاء علاقة القرابة لن ينال منها عدم زيادتها بعلاقة المصاهرة..

نمت ليلتي في غرفة المسافرين.. تلك الغرفة التي أزيلت هذه الأيام حتى من البيوت العريقة.. وفي الصباح تناولت فطوري معهم قبل أن أصافح الرجل ثم الأولاد وهم في طريقهم إلى العمل والمدارس.. احتلت مكاني المختار في غرفة الصالون المجاورة للمدخل والتي لابد أن تمر عليها وهي في طريقها للخروج إلى كليتها..

سمعتها تنادي أمها بتحية الخروج.. ويبدو أنها فهمت أنني عدت إلى غرفتي.. ولكنها فوجئت بي عند خروجها أجلس على الكرسي القريب وبيدي صحيفة اليوم..

أشرت إليها أن تجلس..

احمر وجهها..

هدأتُ من روعها..

- كلام مهم.. لمدة دقايق..

جلَستْ في هدوء..

وبلا مقدمات أفهمتها أنني أنوى التقدم لخطبتها الليلـة.." وقد رأيت أنه من المناسب ألا أفاجئك بذلك مثل الآخـرين.. فربما لك رأى آخر.. في شخصي.. مقابل صاحب نصـيب آخر لا أعرفه "..

ازداد وجهها احمرارا..

بادرتها: - أنني أعرف عمق هذه المفاجأة.. " وأنا أثق أنـك لن تنطقى بكلمة، يكفي هـزة رأس واحـدة.. هـل أتقـدم لخطبتك.. ؟"

ازداد وجهها احمرارا.. ولاذت بالصمت.. حتـى أننـي رأيت أن هزة الرأس المقترحـة إذا غابـت فهـذا رفـض صريح.. وسأغادر هذا المنزل بعد قليل..

ولكن.. جاءت هزة الرأس الخَجِلة لتعلن صفارة البدايـة لمباراة طويلة بطول الحياة.. عريضة بعرض الكون.. عميقة كبطن المحيطـات.. فيهـا الأمـل.. والألـم.. والحـب.. والمعايشة.. والنجاح.. والسعادة.. والبحث عـن الأفضـل..

وحب الناس.. وفعل الخير.. وحب الكرام.. واتقاء اللئـام..
ولكن.. ما لم نستطع أن ننقيه طوال سنوات طويلة:
هو المرض.. خاصةً مرضها الأخير..
* * * *

(٤)

الوظيفة: رئيس مجلس إدارة شركة التعمير المصرية

مات الخال..
وكان عنوان وجودي بينهم هو أنني خطيب ابنته.. وكان لابد أن يتغير العنوان.. وبسـرعة.. إلـى زوج.. فالتقاليـد المحافظة تجعل العنوان الأول غير مستساغ لأسـرة بهـا أم وثلاثة من الصبية في سلك التعليم..
وافقوني على عقد القران..

وكان صامتًا.. وحزينًا.. ملأ حضـوره بالكـاد مقاعـد الصالون المحدودة العدد..

وعندما انتهت الحرب، ونجوت بحياتي..كان مشـروعي الوحيد الذي يفرض نفسه هو استثمار أو توظيف تلك الحيـاة التي نجوت بها بأن أبدأ في تكوين أسرتي الصغيرة..

ولكني مازلت في الجبهة.. نمارس المهام المترتبة علـى انتهاء الحرب وأهمها تنظيف الثغرة – التي انسـحب منهـا اليهود - من الألغام والشراك الخداعية والقنابـل المدفونـة داخل وحول وبجـوار المتعلقـات الشخصـية والصـناديق المتروك بها فواكه شهية طلبا للإقبال عليهـا.. وكـان فـي الغالب هو الإقبال على الموت قبل أن نكتشف الفخ الدنيء..

كنت قد جهزت الأثاث الكامل لشقتي التي لم أعرفها بعد.. اكتفيت بغرفة النوم لأعد بهـا جناحـا فـي بيـت حمـاتي ولأشاركهم أحلى أيام عمري في قلب منزلهم وفي قلـب قلوبهم.. من لي الآن بسهرة هادئة مليئة بالمرح بعد عشـاء مختار تصنعه الحماة المدهشة في صنعتها لكل الأصناف؟.. من لي بتلك الضحكات التي تصاحب ذلك التنافس البريء في

لعبة ورق (الكونكان) ؟.. أنا وزوجتي في جانب والحماة خفيفة الدم مع أحد أبنائها في الجانب المنافس ؟..

وجاءت البشرى بتوأم في رحمها الطيب.. وتعالت نغمة السعادة..

ثم ازداد علوها عندما التحقتُ بعملي المدني مغادرا الخدمة العسكرية قبل وصول التوأم بأسبوعين.. وعندما شرفانا " إيهاب وهاني " كان لشكل الأشياء بهجةٌ جديدة.. وللحياةِ طعم آخر..

كان مجموع إيرادي من وظيفتي.. وإيرادها من وظيفتها كافيا أن يجعلنا بمقاييس تلك الأيام من الطبقة الميسورة.. خاصة أن وظيفتها كانت مميزة لتوسط أحد أقاربها المهمين لإلحاقها بمؤسسة اليونسكو في إدارة الحسابات بمكتبهم بالقاهرة..

كنا في رغدٍ من العيش.. والدليل أننا نوفر ما يقترب من نصف دخْلينا.. وكانت قد تصاعدت نغمة السفر إلى الخليج والسعودية بعد طفرة البترول التي وفّرت للعرب المليارات التي لم تكن في حسابهم فأنفقوا (بعضها) في البناء والتنمية..

سافر بعض من حولي من الأصدقاء.. كنت أذكر ذلك أمامها فكان سؤالها: لماذا ؟.. نحن سـعداء.. ولـدينا مـدخرات.. وسنحصل على شقةٍ كبيرة.. وأطفالنـا صـغار ".. وكنـت بالفعل مقتنعا بما تقوله رغم أن أسـبابي كانـت مختلفـة.. ورغبتي في البقاء بمصر كان لها مبررات أخرى.. إذ حدث أنني حصلت على ثلاث جوائز هامة في عام واحد ١٩٧٥ – المرتبة الأولى في نادى القصة – وفـي مجلـة الهـلال.. والمرتبة الثانية بمجلة النصر.. (اشترينا بهذه الجائزة مهـدا جميلاً للتوأم) وقتها داخلني شعور بالثقة والفخـر، وهيـأت نفسي لخوض عالمي الذي يعيش داخلي صامتًا متحفزا قلقًـا ولكن به ثقة.. عالم الفن والكتابة..

ورغم تأييدي لها ولنفسي بتأجيل السفر إلا أنني استدرجت لمقابلةٍ طلب صاحِبها مهندسا معماريا لشـركته بالسـعودية وأثمرت المقابلة عن اختياري، وأثناء تجهيز الأوراق للسـفر ومع ظهور بوادر القلق والتوتر على وجه زوجتي جاء مـن أنقذها من هذا التوتر وذلك القلق.. جاء مـن سـطا علـى وظيفتي واستخدم كل إمكانياته الغريبة فـي إزاحتـي وأنـا مستسلم له تعلو وجهي ابتسامة.. وعدت إلى قنـاعتي بمـا

تملكه يداي.. عملي الحكومي صباحا بـديوان عـام وزارة الأوقاف أصمم المساجد.. وعملي المسائي في أحد المكاتـب المعمارية الهامة وهو مكتب المعماري الفنان حسين بكـرى الذي أشركنا معه في التصميمات التنفيذية لمِسـجِدى: الفـتح والنور.. أهم المساجد الحديثة بالقاهرة..

كنا نسهر مع ابنة صاحب المكتب لنقدم مساعداتنا الفنيـة لها في مشروعها للتخرج من كلية الفنـون الجميلـة قسـم العمارة بالقاهرة.. أنا ومعي زميلان عنـدما اقتـرب منـي أحدهما طالبا نسخة من أوراقي.. لماذا ؟..

- لوجود لجنة من وزارة البلديات بالسعودية تطلب الكثير من المهندسين والرسامين والمساحين.. قلت له: ليس الآن.. لقد اتفقت مع زوجتي أن نؤجل ذلك حتى يكبر الأطفال..

كان لحوحا.. قال لي: لن تخسر شيئًا.. مـن المؤكـد أن حقيبتك بها نسخ من الأوراق التي جهزتها للسفر الـذي لـم يتم.. فأعطيته نسخة وأنا استفسر منه (لا أدري لمـاذا ؟) عن مكان اللجنة.. فأجاب سريعا (٣٢ شارع مصدق) ونسيت الأمر برمته لأكثر من شهرين..

كنت أذهب إلى عملي بـ وزارة الأوقـاف بالمواصـلات العادية.. المترو حتى رمسيس من منزلي بحلمية الزيتون ثم مترجلاً عابرا شارع الجمهورية حتى شارع..

وذات صباح وكان خالها ذو المنصب الهام يبيت ضـيفًا عندنا.. وبدلاً من أن تستقل حافلتها الرائقة التابعة لليونسـكو وأنا أستقل قطاري.. عزمنا خالها أن نرافقـه فـي سـيارته لنتسلى بالحديث سويا.. هي ستصل معه إلى الـدقي.. وأنـا أهبط في ميدان التحرير وأترجـل المسـافة الباقيـة حتـى وزارتي.. (لماذا راق له القيام بهذه العزومة ؟.. لا أدري).. وفي ميدان التحرير قلت للسائق أن يتمهل حتى أنزل أنا.. إلا أنها عرضت علي عزومة أخرى: "

- تعالى اشرب شاي في مكتبي.. أنت لم تزرنـي.. ولا مرة...

" كدت أتعلل بأي شيء حتى أرفض.. ولكني خجلت هذه المرة..

(لماذا.. لا أدري ؟..)

وفي غرفة مكتبها (التي تختلف كثيرا عن الغـرف التـي نعرفها في المصالح والوزارات الحكومية) والتـي تُقاسـمها

فيها زميلة كانت تزورنا في منزلنا.. استأذَنْتها الزميلة فجـأة أن تذهب لمشوار صغير: " إلى شارع مصـدق ".. انتبهـتُ إلى الاسم.. وتذكرت متى طُرح أمامي.. إنه الشارع الذي به لجنة الحكومة السعودية.. وخرجتْ زوجتي ومعهـا بعـض الدوسيهات.. وبقيت الزميلة تهيئ نفسها للخـروج.. سـألتها عن موقع هذا الشارع.. عرفتُ منها أنه المجـاور للمبنـي مباشرة.. " على ناصيته محطة البنزين ".. وعندما خَرجـتْ إلى مشوارها.. خَرجتُ في أثرها تاركـا لزوجتـي ورقـة صغيرة: " سأعود بعد قليل "..

لم أكن قد أبلغتها بواقعة الأوراق التي حملها زميلي نيابة عني إلى لجنة ما.. ربما أكـون قـد نسـيت لعـدم أهميـة الموضوع.. أو ربما تناسيت حتى لا أزعجها بفكرة السـفر مرة أخرى.. لقد وجدت العنوان قريبا من مكتبهـا للغايـة.. طالعتُ في البرواز الزجاجي أسماء السادة المهندسين الـذين تم قبولهم.. ووجدتني مقبولاً.. دخلت إلى رئيس المكتـب.. سألته عن كوني قد قُبلت ولم يتصلوا بي.. أجاب ببساطة:

" لأنك لم تكتب عنوانك "..

وكان محقا في قولـه لأنني أعطيـت لزميلـي الأوراق وقتها ولم أكلف نفسي كتابـة الطلـب الـذي يغطـى هـذه الأوراق..

قال الرجل: كنا سنسافر بعد غد.. ومن حظك أن المهنـدس الذي سيعقد لك الامتحان سيغادر اليوم في المساء.. الحقة في مكتبه لعمل المقابلة.. إذا وافق عليك سأحرر لك العقد الآن..

وبعد نصف ساعة كنت أقبض على عقد عمل من ثمـاني صفحات.. وخطاب التأشيرة.. وبعد نصف ساعة أخرى كنت في غرفة مكتب زوجتي وبيدي مظروف.. كنـا بمفردنـا.. سألتني عن هذا المظروف الذي معي.. فتحته وقـدمت لهـا العقد.. وقبل أن ينفجر رأسها من الاستغراب رحـت أروى لها ما حدث منذ كنت ساهرا في أتليه الرسم بكليـة الفنـون الجميلة.. وأنهيت روايتي قائلا: " ولولا كوب الشاي الـذي أغريتني به اليوم ما كان السفر.. وما كانت تلـك المقدمـة لرحلة طويلة في الحياة.. لو قلت لك: أنت وجه السعد هـل أكون مبالغًا.. ؟.. لا وا ما تلك بمبالغة..

كان لابد أن أجهز أوراقي للسفر في مدة أقصاها خمسـة عشر يوما.. ميعاد نهاية التأشيرة.. وكان لابد من الحصـول على موافقة الوزارة لمنحى إجازة عمل... قال زميلي الـذي يحمل عقدا للعمل في السعودية مثلي:

- لن أطلب أجازة عمل فسوف يرفضون لوجود عجـز في عدد المهندسين بالوزارة.. سأطلب أجازة عمرة.. وأسافر دون عودة "..

تساءلت: ولماذا اللف والدوران ؟.. لـن أفعـل مثلـك.. سأدخل من الباب.. لن أدخل من الشباك..

ونجح القافز من الشباك وحصل علـى قـرار بالأجـازة للسفر.. وأغلقوا الباب في وجهي برفضهم طلبي..

طلبت مقابلة السيد الوزير وهو الشيخ الذهبي رحمه ا .. فشلت في ذلك.. وعندما كانت زوجتي تحكي لزملائها عـن متاعبي الناجمة عن تمسكي بالصراحة سمعها زميـل لهـا فأشار عليها أن يمهد لي مقابلة لخاله الـذي يعتبـر الرجـل الثاني في الأزهر الشريف وهو الشيخ خاف السيد.. (لمـاذا هو خال هذا الزميل بالذات ؟..) والشيخ خاف يربطه بالشيخ الذهبي إعزاز وحب..

قابلت الرجل في مكتبه (هذا المكتب أتمني أن أصفه في رواية مما فيه من بخورٍ وعممٍ حمراء وزرقاء وخضراء وحب ناعسٍ يغفو على الجدران).. الذي خط بيده كتابا على ورقةٍ زرقاء سميكة أعطاه لي وهو يردد في طيبة:

- يا ولدي.. لا تقلق.. لو كان لك شَربة ماء في السعودية فسوف تشربها.. (بعدها كنت أمازح زوجتي ونحن نشتري المياه العذبة في مدينة الرياض بالجراكن وأذكّرها أن القطرة صارت سيلاً)

كان مديري العام مهندسا طيبا اسمه عبد السلام نظيف.. أعجبه موقفي الصريح مقابل التصرف الملتوي لزميلي الذي سافر فعلاً... وساءه أن أكون أنا من أبطال حرب أكتوبر واهبا خمس سنوات من عمري للقوات المسلحة ويهنأ من لا يحمل هذا الفخر بمزايا، ألهث للحصول على مثلها وألقى المتاعب في سبيل ذلك.. أخذ مني الخطاب وقدمه لمعالي الوزير وأنا أقف على مقربةٍ منهما لائذًا بالصمت المؤدب..

تحدث الوزير عن الخُطة السنوية التي لم تكتمل بسبب العجز في عدد المهندسين.. ثم تحدث عن قرار مجلس الوكلاء بعدم التفريط في أي مهندس.. ولكنه لا يمانع (قفزا

على هذا القرار) في أن أفعل مثل زميلي وأتقدم بطلب سـفر للعمرة..

(موسيقى تصويرية)..

الوزير يقفز على قراره بنفسه.. من أجلى "!!!

أسرعت بكتابة الطلب الكاذب.. وانكشف كـذبي للسـيد وكيل الوزارة أنور بك سعيد.. الذي اكتشف دوننا جميعا بأن موسم الحج قد بدأ فكتب أسفل طلبي هذه العبـارة: (مـادام موسم الحج قد بدأ.. فإن طلب العمرة.. غير مستساغ)..

(موسيقى تصويرية أخرى.. ولكن حزينة)

أسرعت إلى مديري العام.. الحقني.. فلحقنـي بالـدخول بنفسه إلى زميله القانوني.. وأفهمه "أن الطلب مؤيد شـفويا من معالي الوزير.. فأعطاني الموافقة..

باقي أربع ساعات على موعد إقلاع الطائرة وأوراقـي لا تحمل الاتساق المطلوب.. فتأشيرتي: للعمل.. وموافقة جهـة عملي: للعمرة.. وموافقة القوات المسلحة: للسياحة.. ويمكن لقارئ الأوراق أن يعيد لي جوازي ويمنع سـفري بـأدب.. والسبب:" لاختلاف أسباب السفر.. وتوفر سوء النية "..

لذاك قلت لحماتي ونحن على مائدة الغداء ضاحكًا: هـذا السمك لذيذ.. احتفظي ببعضه لوجبة العشاء فسوف أعود من المطار مطرودا لأتعشى معكم.. فأقسمت لي الحماة الطيبـة أنني سأسافر..

وعندما وجدنا اللوح الزجاجي - المستطيل الـذي يحتـل مكانه فوق قُرصة السفرة - يتشقق إلى أجزاء عديدة بصوت مسموع ومن تلقاء نفسه هتفَتْ السيدة الطيبة: العين جتْ فـي القزاز.. الحمد .. مش قلت لك هتسافر.. ؟..

والغريب.. أنني فعلاً سافرت.. عرفت ذلك وأنـا أديـر وجهي بعيدا عن وجه ضابط الجوازات ولم ألتفت إليه إلا بعد أن سمعت ضربة الختم على جواز السفر ويده تمتد إلى بـه مع هزة رأس: مع السلامة..

وبرغم أن مرتبي كان مرتفعا قياسـا بمرتبـات المهـن الأخرى إلا أن الأسعار كانت مرتفعة.. فالمساكن المعروضة للإيجار لا تكفي كل طالبي التأجير.. إذ إن منظومـة البنـاء كانت في بدايتها.. وبدل السكن.. رغم مبلغه المميز كـان لا يكفي للحصول على شقةٍ ملائمة.. ولابد من إكماله من أصل المرتب.. وفكـرة الادخـار بالنسـبة لـي علـى حسـاب

الضروريات (التي يراها البعض كماليات) فكرة لا تعجبني.. وانتهيت إلى قناعةٍ في الشهور الأولى إلى أننا جئنا هنا لنحيا حياةً ميسورةً كنا نعيشها بشكلٍ أفضل في مصر.. ما بال عندما يكبر الأولاد ويدخلون المدارس .؟..

لم أعر الأمر اهتماما.. فأنا سعيد بالوقت المتاح لي بعد عودتي من العمل وحتى ذهابي إليه في الصباح.. هذا الوقت يتيح لي القراءة والكتابة.. ومراسلة الصحف والمجلات السعودية ومقابلة بعض الكُتاب والصحفيين لأنشر وفي فترة وجيزة عددا لا بأس به من القصص القصيرة.. في مجلات (اليمامة) و (اقرأ) وغيرهما بالسعودية.. ومجلة (النهضة) الكويتية ومجلة (الدوحة) القطرية..

كنت في زيارة جاري المهندس السوداني (الذي يدعى " على " وزوجته " مياه ").. وكان يستضيف مواطنًا سعوديا.. سألني السعودي عن مهنتي وعندما عِلم أنها هندسة العمارة.. سال لعابه.. لا أدري لماذا ؟.. اتضح لي أنه يملك قطعة أرض ويرغب في عمل تصميم فيلا عليها.. لم أمانع في (خدمته) بعمل التصميم.. جاءني في اليوم التالي بسيارته لأذهب معه إلى موقع الأرض.. عاينتها وحصلت على

مقاساتها.. نفذت فكرة التصـميم.. أعجبتـه.. طلـب منـي الحصول له على ترخيص من البلدية لم أمانع حتى أثبت لـه ولنفسي أنني جدير بهذا العمل.. سألت بعـض المحيطـين.. دلوني على الوسيلة.. أنجزت لـه طلبـه.. سـلمته الرسـم والترخيص.. كنت خجلاً من مطالبته ببعض المصاريف التي تكبدتها.. إلا أنه عندما قدم لي مظروفًا به مبلغ يصـل إلـى عشرة أضعاف ما تكبدته أخذني الاستغراب إذ إن ذلك يتنافى مع ما لاحظته عليه من بخلٍ شديد.. وعندما همسـت بـذلك لصديقٍ أثق فيه – وكان يمارس هذا العمل الإضافي – قـال لي: ومع ذلك فأنت تستحق عنده أكثر من ضعف ما أخذته..

كان استغرابي مصدره كثرة ما توفر لي من مال من هذا الرسم.. واكتشفت أن السبب هو أنني لم أنفق أي مصـاريف على المشروع بعد أن قمت بأعمال فريق كامل كان يجب أن ينهي معي مشروع الفيلا.. الرسام للرسم.. والمهندس المدني لحساب التسليح.. والخطاط لكتابة الخط.. ومهندس الكهرباء لتصميم الأعمال الكهربائية.. لقد قمت بنفسي بعمل كل هـذه البنود.. كانت زوجتي تسهر بجواري وفي علمها أنني أؤدي خدمة لرجل قابلته عند السوداني زوج صـديقتها " ميـاه "..

وعندما قدمت لها الإيراد غير المتوقع تعجبت لوصول هـذا الرزق الوفير غير المنتظر.. ويبدو أن " عبد الرحمن " راق لـه ما لمسه من قناعتي ورضائي بما قدمه لي مـن مـالٍ، قدره هو بعيدا عن تقديرات السوق فأتى لي بأحـد معارفـه لأصمم لـه مشروع فيلا أخرى.. لاحظت أنه يصـبو إلـى تعويضي.. ويصبو إلى خدمة زميله إذ إنه رغم ما يتوقعـه من زيادة أتعابي هذه المرة إلا أنهـا سـتكون - أيضـا - متواضعة.. فالمكاتب تبالغ في أتعابها لكونها مليئة بالزبـائن والأعمال.. أما أنا فأعمل في منزلي الذي كان من حظي أن صالوني الفسيح به كان يتمتع بمدخلٍ خاص علـى الـدرج بجانب مدخل آخر للعائلة.. وعندما أضفت إليه منضدة الرسم ومكتبةً صغيرة بدا للرائي كأنه مكتب رسمي..

أنجزت لصديق عبد الرحمن مشروعه بـنفس مجهـودي المكثف لكل البنود.. كنت أسهر مع زوجتي التـي تـوافيني بفناجيل القهوة والشاي، ومداعبات توأمي الجميلـين.. كـان المبلغ هذه المرة كبيرا.. ومع هذا فقد اقتطعت منه خمسمائة ريال وضعتها في جيب عبد الرحمن في خلسة من صـديقه (لا أدري لماذا وكيف فعلت ذلك ؟..)

بحاق في وجهي.. لاحقته: هذه أتعابك عن أي زبون تأتى به..

الواقع أنني ودون تخطيط مني فعلت ما يوصى به أساتذة التسويق الذين يركزون على الدعاية لتسـويق المنـتج.. أي منتج.. فالأفكار والفن نفسه منتج بشرى ينطبق عليهما كل ما ينطبق على سائر السلع.. وقد اتضح لي فيما بعـد أن عبـد الرحمن تحول إلى آله دعائية متحركة لمهندس مصري اسمه أحمد (الماضِى).. له مكتب (غير رسمي).. أتعابـه أقـل.. ويسلم المخطط في مدة أقل..

كان يعمل بوزارة العدل..

وبعد شهور قليلة كان مكتبي يستقبل أغلب موظفي هـذه الوزارة..

وعندما أتى لي عبد الرحمن بزبون ممتلئ لـه منصـب هام في وزارة الصحة وجدته يعلم كنه العلاقة المالية بينـي وبين عبد الرحمن فطبقتها عليه..

وكنت بعد شهور أخرى المهنـدس المعـروف لأغلـب موظفي وزارة الصحة .

وبعدها تطور الأمر إلى استغراق هائـل فـي تصـميم الفِيلات والعمارات والبيوت الشعبية لأمارس هـوايتي فـي التصميم مراقبا زيادة العائد المادي الذي جعلني أبتهج حمـدا وشكرا على ما قدمه لي من رزق وفيـر وعمـلٍ أحبـه وأعشقه رغم سنوات الجندية التي أبعدتني عنه رغما عني..

وكانت مظاهر التطور تقتضى اقتناص فرصة خلو الشقة المجاورة لأحصل عليها وأخصصها للمكتب ومقابلة الزبائن الذين زاد عددهم حتى أن أحد الظرفاء شبه بسطة السلم أمام شقتي بمداخل المساجد من كثرة النعال التي يتخفـف منهـا الزبائن على باب المكتب / الشقة...

وكانت الضرورة تقتضى أن أكتفي بعمل التصميم الـذي يعتمد على الفكرة ثم يتولى أمر رسوماتها التنفيذية كل الفريق الذي أشرت إليه.. واخترت فريقي من المصريين، وقليلاً من الفلسطينيين.. والسوريين.. ثم طالبتني الضـرورة وطلـب سرعة الإنجاز إلى تعيين بعض الموظفين للتسهيلات الإدارية في البلديات المنتشرة في مدينة الرياض لسـائر الأحيـاء.. ولتولي طبع الرسومات.. ولتسليمها إلى المهندسين المكلفـين بسائر البنود – في منازلهم – حتى أنني صرت أمتلك دسـتة

كاملة من المساعدين.. وكنت أتساءل في عز انهماكي وإرهاقي وأردد سؤال الحامد الشاكر: (لماذا قابلت عبد الرحمن بالصدفة عند المهندس على السوداني الطيب زوج " مياه "؟.. لا أدري.. وليس لي أن أسأل)..

نلت شهرةً لم أكن أحلم بها وارتبطَت هذه الشهرة بلقب منحه لي زبائنى وربما بعض أصدقائي الذين أسعدهم نجاحي.. حيث أسموني بمهندس "البدو " وكانت هذه أكثر كلمة معبرة عن علاقتي بنوع الزبائن الذين كانوا يقصدون مكتبي.. وأنا لا يمكنني الادعاء أن الهندسة وحدها كانت سبب حبهم لي وتمسكهم بعمل تصميماتِ مساكنهم عندي.. فقد كان ما يفتح شهيتي معهم هو الاقتراب منهم على المستوى الإنساني إذ كنت أحيانًا أعطى الورقة والقلم لأحدهم وأطلب منه أن يخطط الفيلا التي يحتفظ بها في خياله.. وكنت أستفيد جدا من هذه الخطوط التي لا يفهمها غيري، لسبب واحد هو أن الفيلات التي كنا نرسمها كانت تدور في الغالب في نطاق متقارب.. فمكان دخول الرجال يكون على الشارع الرئيسي.. ودخول النساء من الشارع الفرعي أو من أحد جوانب الحديقة إذا كانت الفيلا على شارعٍ واحد..

ومجلس النساء يجاور مدخل النساء ومجلس الرجال يجـاور مدخل الرجال.. وصالة الطعام في المنطقة الوسـطى بـين المطبخ ومنطقة الرجال.. إذن فما سوف يضعه البدوي بقلمه المرتعش ليس سوى الشيء الذي في خياله وخيالي..

لم يكن العمل وحده هو الذي ربطني بهم.. بل هو الحـب على المستوى الشخصي، حتى أنهم كانوا يحتفظون بصكوك أراضيهم طوال مدة أجازتي وتكون الإضاءة المبثوثـة مـن غرف المكتب هي الإشارة إلى عودتي.. وهنا أكـون علـى استعدادٍ لاستقبال هجمةٍ مرهقةٍ مع طاقمي من المساعدين..

كثيرا ما كنت أهرب بأولادي إلي أجازة داخلية في مساء الأربعاء وحتى صباح السبت طائرا إلى مكة لعمل عمرة أو إلى الطائف للاستجمام أو مدينة أبها للنـوم طـردا لتعـب الإرهاق ولتجديد النشاط..

وقررت العودة عام ١٩٨٤ بعد ٩ سـنوات مـن العمـل المضني وبعد اقتناعي أن تلقي الأولاد لتعليمهم في مصر هو الشيء الأجدر بالاهتمام.. وحزمت حقائبي وأنهيت مشاريعي وأعلنتُ موعد سفري.. إلى أن طرق بابي أحـد الزبـائن.. وكنت أعاني من صداعٍ جعلني أضغط على جبهتي بمنـديلٍ

محكم الشد.. وعندما وجدني الرجل على هذا الحال اعتـذر لاضطراره إلى الحديث معي رغم ما أنا فيه إذ إنه على سفرٍ في الغد إلى (حائل) لأعماله هناك وأنه جاءنى بتحريض من أنُاسٍ يثق بهم إذ إن مشروعه الذي يتمثل فـي عمـارة سكنية تحيطها أربع فيلات لنسائه مع "حمام سباحة مغطـى " وكل هذه العناصر داخل أرض كبيرة على أربعة شـوارع.. هذا المشروع بحاجة إلى " كروكي " عاجل يتأمله غـدا ثـم يوقع لي بالموافقة والتعاقد إذا جاز له الرسم..

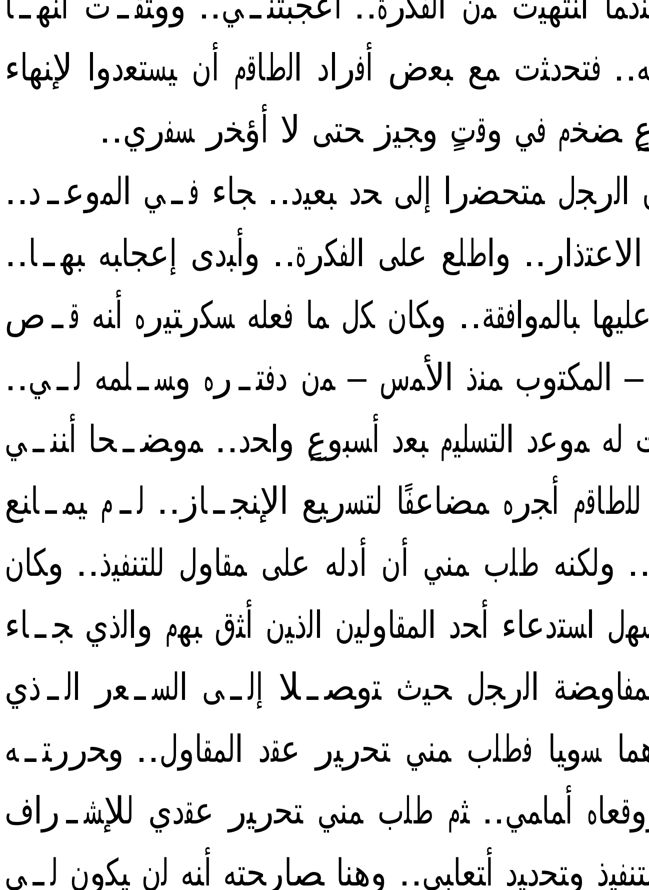
أثناء الجلسة تحدث من تليفوني (قبل اختراع المحمـول) لعدة أشخاص وكان ما وصلني من أثر هذه المكالمات يوحى بمقدار الرجل ليس لكونه من الأثرياء ولكن لكونه يشع ببريق صاحب النفوذ والاقتراب من السلطة ومجالسة الأمراء..

قلت لنفسي: الاعتذار بحجة السفر غير مقنـع إذ يمكـن للمرء أن يؤجل سفره خاصة إذا كان سفرا نهائيـا.. ولكـن المشروع ضخم وسيستغرق وقتًا.. ومع سـؤاله لـي عـن استعدادي وقيمة أتعابي.. قررت ألا أمانع من ناحيتي ولكـن من السهل أن أجعله هو الممـانع إذا اكتشـف أن فـاتورتي ضخمة.. وأسقط في يدي.. فما أن أعلنت رقمي حتى أومـأ

للرجل الذي معه بتحرير شيك بنصف المبلغ واتضح لـي أن هذا الرجل هو سكرتيره.. وعلى الفور اتخذتُ موقفًا عمليـا طالبا منه التمهل حتى نناقش فكـرة المشـروع غـدا بعـد العصر.. " وإذا راقت له الفكرة فسوف أؤجل سفري لإنهـاء المشروع ".. ولكن طائرته كانت في نفس الموعـد.. ومـن ناحيتي لا يمكنني التبكير إذ أنني لن أجلس على طاولة الرسم الليلة بسبب الصداع.. ولكن بالكاد سيمكنني ذلك غـدا منـذ الفجر وحتى صلاة العصر.. واحتـرم الرجـل ظروفـي.. وسرعان ما حل مشكلته بالتحدث مع أحد معارض السيارات لتجهيز سيارة كاديلاك على الزيرو يسافر بها ثـم يضـمها للمعرض الذي يمتلكه في مدينة حائل.. لقد ألغى الرجـل – الذي فهمت أنه يتاجر بالسيارات – رحلته بالطائرة واستبدلها بهذه السيارة..

قلت لزوجتي وأنا أغالب الصداع:

- حاولت الانسحاب بلباقة ولكني فشـلت.. وواضـح أن الرجل ذو حيثية.. سوف أنهض فجـرا متمنيـا أن يخـف الصداع وأعكف على تصميم مشروعه كفكرة أولية سـوف تستغرق معي ما لا يقل عن عشر ساعات..


وعندما انتهيت من الفكرة.. أعجبتني.. ووثقت أنها ستعجبه.. فتحدثت مع بعض أفراد الطاقم أن يستعدوا لإنهاء مشروعٍ ضخم في وقتٍ وجيز حتى لا أؤخر سفري..

كان الرجل متحضرا إلى حد بعيد.. جاء في الموعد.. وكرر الاعتذار.. واطلع على الفكرة.. وأبدى إعجابه بها.. ووقع عليها بالموافقة.. وكان كل ما فعله سكرتيره أنه قص الشيك – المكتوب منذ الأمس – من دفتره وسلمه لي.. وحددت له موعد التسليم بعد أسبوعٍ واحد.. موضحا أنني سأدفع للطاقم أجره مضاعفًا لتسريع الإنجاز.. لم يمانع الرجل.. ولكنه طلب مني أن أدله على مقاول للتنفيذ.. وكان من السهل استدعاء أحد المقاولين الذين أثق بهم والذي جاء فورا لمفاوضة الرجل حيث توصلا إلى السعر الذي أرضاهما سويا فطلب مني تحرير عقد المقاول.. وحررته له ووقعاه أمامي.. ثم طلب مني تحرير عقدي للإشراف على التنفيذ وتحديد أتعابي.. وهنا صارحته أنه لن يكون لي نصيب في ذلك لأن سفري هذه المرة هو سفري النهائي، فقد أنهيت كل علاقاتي بالعمل الحكومي والعمل الخاص بل

وودعت المعارف.. " إلا أن مشروعه – الذي لم يكـن مـن الذوق أن أرفضه – هو الذي أجبرني على التأخير "..

هذا الرجل الهادئ الوقور الرزين تحول فجأة إلى شخص ثائر محتج وكانت ثورته وكان هياجه واحتجاجه يتركز فـي سؤال واحد: كيف لمثلك أن يغادر السعودية ؟.. ثـم يقسـم بطريقة عربية منفعلة:

- وا .. وا .. مثلك ما يغادر السعودية.. كفايانا اللـي يلعبون علينا (يقصد بعض الجنسيات العربيـة الأخـرى) ليش يا أخي.. مادام شجرتك يانعة تدبلها بنفسـك.. ؟ إنـت مشهور ولك اسمك ولسه عندك أعمال (وايـده).. أي كثيرة..

هذه الكلمات أذهلتني.. إذن فهذا الرجل جاءني وهو يعلـم أنني مزدحم بالعمل.. ومطلوب دائما.. وقد ظهر علمه بذلك في كلمة (شجرتك يانعة).. والصحيح في نظره أنني يجب أن أظل مقيما.. أعمل.. وأعمل.. وأعمل.. أما مسـألة الأولاد والدراسة والتعليم (التي أوضحتها له) فلها حلول ".. هنا مدارس عالية المستوى لأبناء الصفوة.. يمكنني مساعدتك في إلحاق أولادك بها، يمكنك أن تلحقهم بمـدارس القـاهرة

وتسافر إليهم كل عدة شهور.. اسمع.. سأجعلك منذُ الغد على كفالتي.. سأمنحك حريتك في السفر.. وتأشيرةً مفتوحةً للذهاب والعودة دون مراجعتي.. العواجي (وهذه شخصية مشهورة في وزارة الداخلية وقتها).. ابن خالتي سيسهل لي كل شيء.. هذه تليفوناتي ".. وناولني بطاقته ذات الدفتين وبها أكثر من عشرة تليفونات ما بين الرياض وجدة وحائل ولندن.. تليفونات بالمكاتب وتليفونات بالسيارة وتليكسات (قبل اختراع الفاكس) ووجدت من الصفة التي منحها لنفسه في البطاقة أنه رئيس نادٍ رياضي مشهور.. إذ طلب مني بعدها عندما سألت عنه أن أجلس أمام التليفزيون لكي أراه عندما يلعب فريقه وأرى مدى توتره وانفعاله.. ثم مدى فرحته إذا فاز ناديه تلك الفرحة التي يترجمها إلى هدايا للاعبين.. سيارة لكل لاعب !!

لقد تناسي الرجل خطوات مشروعه وركز على فكرة بقائي في السعودية.." وأنه حرام.. حرام أن تترك هذا النجاح خلفك بكل هذه البساطة وتسافر لمجرد انتقاء المدارس المناسبة لأبنائك.. يمكنك الجمع بين المصلحتين.. هكذا يفكر الأذكياء.. "

قلت له: دعني أفكر في الأمر.. سأمكث في القاهرة على الأقل ٦ شهور قبل أن أفكر في العودة إلى هنا.. أنا بصـدد تكوين شركة مع عدد من الأصدقاء في القـاهرة.. أفهمنـي الرجل أن " ستة شهور من الغياب وإغلاق المكتـب كفيلـة بالقضاء على المكتب نهائيا..

سأرسل لك التأشيرة.. عد بعد شهرين ولكن أتـرك مـن يحل محلك لاستقبال العملاء وساعده بإرسـال التصـميمات بالبريد أو بالتلكس.. ضع قدما هنا.. وقدما هناك.. "

أدار رأسي الرجل وقلّـب حـالي: فجمعـت أصـدقائي وطرحت عليهم ما حدث.. فتساءل أحدهم: لماذا – فعلاً – لم تفكر أنت في هذا الأمر قبل أن يدلك عليه أحد ؟.. هناك في مصر بعض كِبار الاستشاريين الذين يتمنون إنشاء مثل هـذا المكتب الذي نشأ لك بالصدفة.. وهم يعلمـون أنهـم حتـى يصلوا إلى هذا المستوى من الرواج سينفقون أموالاً طائلة.. رغم أن نجاحهم مرهون بأشياء كثيرةٍ ربما لا تتـوفر لهـم مثلما توفرت لك..

أثناء الأسبوع الذي اجتمعنا فيه لإنهـاء هـذا المشـروع الخاتمة لهذا الرجل الساخن.. كانت الفكرة تختمر.. وتبـدو

تفاصيلها.. فكرة الحفاظ على هذا المكتب الذي يعرف الجميع أنه فتح بيوتًا كثيرة.. وصنع من المهندسين العدد الوافر الذي يفخر المرء بأنهم انطلقوا إلى رواج العمل والحياة من خلال العمل فيه..

حاولت الاتصال بالرجل مراتٍ عديدة وكنت أصل إليـه عبر التليفون بعد إرهاقٍ شديد.. فهو طائر أغلـب الوقـت.. فأخذني التوجس الذي أعلنته أمام صديقٍ أثق به.. معلنًا ظني بأن حماس الرجل إذا انطفأ فسـوف أكـون تحـت رحمـة مواعيده وأنا أكره القيود.. وعندي قناعة لا أشك في حقيقتها من أنه يمكنك أن تتلقى خدمة عابرة من أي إنسان.. ولكنـه من الممل أن تحصل منه على خدمةٍ مجانيةٍ طويلـة بطـول الحياة.. حتى الأبناء لا يحصلون على هذا النوعِ من الخدمة من أغلب الآباء..

جاءني أحد عملائي وهو شاب سعودي متفتح يعمل وزيرا لأحد الأمراء (الوزير لـديهم هـو اللقـب البـديل لمـدير الأعمال).. صحت في وجهه:" تعالى.. إنت الوحيـد اللـي حتنصحني "..

ثم أعدت عليه مشروع الإبقاء على المكتب تلـك الفكـرة التي ألهمني بها: فلان..

رفع حاجبيه مستغربا: " هل فلان جـاء إليـك هنـا ؟.. عجيب.. هل تعرف أنه: كذا.. وكذا.. وكذا " وظل يقص لي عن الانتشار الاقتصادي لهذا الرجل مع سائر الأمـراء فـي تجارة الأراضي والعقارات.. ثم أضاف:" من المؤكـد أنـه قصد مكتبك لا ليوفر في الأتعاب.. ولكـن ليحصـل علـى تصميم جيد.. وعندما يكون التصميم جيد ورخيص.. فيا دار ما دخلك شر ".. (ملحوظة: قال لي سكرتير الرجل فيما بعد إن " عبد ا " وهذا هو اسم الرجل حصل مني على وفـرٍ في أتعاب التصميم يزيد عن عشرين ألف ريال قياسا بمكتبٍ لبناني كان قد تشاور معه قبلي.. ولكن الأهم من ذلـك أنـك (الذي هو أنا) وفرت له في عقد المقاولة أكثر مـن نصـف مليون ريال.. لأنك أشرت له بمقاول شـاطر ورخـيص.. (وكان مصريا هذا المقاول)..

وعودة إلى الشاب الوزير الذي فاجأني بنصـيحته.." إذا كنت اقتنعت بالبقاء فتأشيرتك عندي.. وبمقابـل شـهري.. وستكون على كفالة أميري.. الذي لا يـرفض لـي طلبـا..

وهناك مبلغ من المال ستدفعه ثمنًـا للتأشـيرة قبـل العائـد الشهري.. "

عدت فعرضت الأمر على أحبائي من الأصـدقاء الـذين سعدوا بقراري.. ونصحوني باختيار العرض الأخير لكونـه يتسم بالحل العملي والواقعية..

لقد أبقيت على شقةٍ واحدة وهي شقة المكتب.. وشـحنت كل أثاثي بالباخرة.. وسبقتها بالطـائرة.. وسـلمت المكتـب لأكثر المهندسين عندي تشبها بطريقتي في معاملة الزبائن.. وبشّرت (عبد ا) بنجاحه في إقناعي بالبقاء مع الاعتذار عن ذلك التعديل الذي توصلت إليه باختيار كفالتي على الأمير.. "فلان ".. قال الرجل: " لك ما يريحك.. ولكـن السـعوديين كسبوا مهندسا مخلصا لهم.. وهذا ما يهمني.." ثم صـارحني بمقدار الوفر الذي حققته له والذي سبق لي التعرف عليه من سكرتيره..

وهكذا كانت زيارة هذا الرجل – المفاجئة وفي السـاعات الأخيرة قبل رحيلي (غير المدروس) – سببا في اسـتمراري بالسعودية عشر سنوات أخرى من عـام ١٩٨٤ إلـى عـام ١٩٩٤ متنقلاً بين القاهرة والرياض أتـابع شـركتي التـي

كونتها في القاهرة لعدة شهور ثم أطير إلى مكتبي – الذي تم إنقاذه – لمدة شهر واحد على الأكثر دافعا فيه الروح التـي يجب أن يظل متحليا بها والتي كانت سببا في نجاحه.. ومـع هذا فقد كانت حالة النجاح تبدو باهتة كلما تقدمت السنوات.. فوجودي الدائم سابقًا كان من شأنه الحفاظ على استمرار هذه الروح.. أما زياراتي المتقطعة فلم يكن من شأنها تحقيق نفس النتائج التي لمستها في حالة تفرغي الكامل للمكتب..

كان الواجب الملح هو الاهتمام في مصر بالشركة التـي كونتها مع ثلاثة من المهندسين ومحاسب.. اختاروا أن أساهم بستين بالمائة من رأسمالها الضخم وكلهم يشتركون في نسبة الأربعين بالمائة.. لم ألتفت إلى خطورة هذه النِسب.. وإلـى خطورة تحميلهم لي مهمة رئيس مجلس الإدارة بحكم حجـم مساهمتي.. فمجهودي إذا أثمر عن مكاسب فسوف يتمتعـون بها.. وإذا أثمر عن خسارة فسوف تكون خسارتهم محتملة.. بحكم أنصبتهم المحدودة..

وقد حدث أن توقف العمل تماما في الشـركة عنـد أول زيارة لي لمكتب الرياض.. عدت فوجدتهم يولون اهتمـامهم لشركتهم الخاصة التي كانوا يملكونها قبـل مشـاركتهم لـي

بسنوات طويلة.. أعلنت غضبي واحتجاجي على هذا الإهمال.. فصارحني أحدهم: لن تجد فينا من لديه الوقت ليعطى أي مجهود (للتعمير).. ضع هذا في اعتبارك..

لم أكن جربت المعاملة مع أى من هؤلاء الأربعة سوى صديقي وخريج دفعتي شريف عبد العزيز.. حاول أن يفعل شيئًا وفشل.. فقد كان قوام الشركة هو إنشاء مصنع ضخم لإنتاج الطوب الأسمنتي.. استوردناه من ألمانيا.. المصنع على بعد خمسين كيلو مترا من القاهرة.. وهذا النوع من الإنتاج يتسم بالخشونة والعناء..

وبدأت رحلةٌ جديدةٌ من الشقاء لإنقاذ هذا المصنع الذي ألقينا في ساحته بأكثر من مليون جنيه من المعدات والإنشاءات.. وبعد أن تورطنا في ذلك وفي خيالنا أننا سنسترد رأسمالنا تدريجيا ببيع الطوب الأسمنتي اكتشفنا أن هذا النوع من الطوب لم يحظ برغبة البنائين في مصر وأولهم البناءون من الفلاحين.. والعجيب أننا كنا قد اخترنا هذا النوع من الاستثمار بعد أن قررت الحكومة وقف إنتاج الطوب الأحمر.. الحكومة التي حددت موعدا لوقف الطوب الأحمر وتجريم تجريف الأرض الزراعية.. وبعد أن قرأنا

تأكيد أحد الاقتصاديين بمقالٍ لـه في الأهرام الاقتصادي بأن مصر سوف تضطر إلى استيراد الطوب من الخارج إذا لـم يتم التوصل إلى تصنيع بدائل للطوب الأحمـر....تمسـكنا بالمشروع..

لقد هجم أغلب أصحاب رءوس الأموال على هذا النـوع من التصنيع لعلمهم أن البناء لن يتوقف حتى لو توقف إنتاج الطوب الأحمر.. وأُسقط في أيدينا عندما لم يتوقف " مافيـا " التجريف عن التجريف.. ولم تتوقف قمائن الطوب الأحمـر رغم التجريم.. وهكذا كسدت صناعتنا وتجارتنا وهـي فـي المهد.. وكان العزاء بالنسبة لنا أننا لم نقتـرض مـن أحـد البنوك وقمنا بتمويل كل المشروع من جيوبنا.. مما جعلنا في مأمن من مطاردة البنوك..

وكان لابد من العثور على حل لتشغيل المصنع بالطاقـة التي تغطي أعباء الموظفين بالشركة (مصنعا وإدارة)..

قمت بتحريك عددٍ لا بأس به من مندوبي المبيعات في كل اتجاه للشركات العامة والخاصة لتسويق منتجنا (المميز) من الطوب دون جدوى.. تحركت بنفسي إلى بعـض الشـركات حاملاً معي في المصعد إحدى عينات الطوب التـي يصـل

وزن بعضها إلى خمسة وعشرين كيلوجراما دون تكبر عـن هذا الفِعل الذي لا يدخل في مهام رئـيس مجلـس الإدارة.. وأيضا دون جدوى..

لاحظت أن مقاولاً صغيرا يأتي إلى المكتب بانتظام كـل يوم خميس ليدفع ثمن مسحوباته من الطوب والتي لا تزيـد عن عشرة آلاف من الجنيهات في الأسبوع الواحد.. أوصيت فتاة التليفون أن تدعو (صلاح) هذا إلى الـدخول لمقـابلتي عندما يحضر.. سألته: هذا الطوب الذي تشتريه من الشركة أين تستخدمه ؟.. فهمت منه أنه يحصل علـى عقـود مـن شركات قطاع الأعمال لبند المباني فقط.. أي أنه ليس مقاولاً للأعمال المتكاملة.. سألته عن سعر بند المباني.. وقمنا سويا بتحليل هذا السعر وكم يمكن أن يفيض منه كمكسب بعد كافة المصاريف وتسديد ثمن الطوب..؟.. لقد وجدت أن البند بـه هامش بسيط من الربح.. ولكن أهم ما فيه أنه يضمن تغطية ثمن الطوب.. سألت صلاح هذا عن الأعمال المفتوحة فـي السوق والتي يمكنني مقابلة المسئولين من أصحابها للحصول على عقود لبناء الطوب بكافة أحجامه.. أفهمني الرجـل أن شركة المقاولون العرب تقوم ببناء عدد ضخم من العمـارات

بمدخل مدينة المعادى وسيرحبون بك كصاحب مصنع لإنتاج الطوب يتولى البناء لهم من إنتاجه..

ذهب فقابلت مدير المشروع الذي رحب بوجودي معهـم كزميل مهندس وكمقاول لبند المباني فرجوته أن يحرر لـي عقدا.. وقد كان..

أسرعت إلى شركات أخرى فملكت منها عقودا أخـرى.. ووجدت أنني بصدد تشغيل المصنع بكامل طاقته بفكرة البناء للغير.. وشبهت هذه الفكرة لمن حولي بتاجر القماش الـذي فشل في بيع القماش كقماش فآثر أن يصنعه جلابيب يبيعهـا لمن يرغب..وبالتقسيط.. رفض الشركاء المساهمة في زيادة رأس المال لمواجهة متطلبات هذا التعديل الهام.. فزدته أنا.. تحت مسمي (تمويل ذاتي بدون أرباح)..

سألت عن موطن عمال بناء الطوب المحترفين فقيل لـي إنها عزبة سليمان بدمياط وهي موطن الوزير الكفـراوي.. وقد دلني زميل إلى شيخ البنائين هناك.. فسـألته فـي أول جلستي معه.. هل يمكنك تحريك دواليب من البنائين يصـل عددها إلى خمسين بنّاء.. وافق الرجل العجـوز المخضـرم الذي كنت أهيم حبا بطريقته في تنظيم دواليب العمل في أكثر

من موقع أنتقل إليه برفقته مستقلاً سيارتي المرسيدس الجديدة والتي لا يليق بها أن تُهان في هذه الرمـال والأتربـة.. وأن تتحول حقيبتها الخلفية إلى مخزن للكواريك والغُلقان !! ولكنه قَدر السيارة الذي هو من قَدر صاحبها المتورط مع شـركاء غير نبلاء اختاروا له أكثر المشـروعات خشـونة وتعبـا.. ولكنهم استخدموا كل ما يملكونه من ذكاء في إبعاد أنفسـهم عن مغبة الانهيار فيما لو خسـروا رءوس أمـوالهم مقابـل تصديري لتلقي هذا الانهيار فيما لو حدث .

والمعنى: أنني لابد أن ألهث – رغـم أنفـي – لإنجـاح المشروع بتشغيله.. ونجاحي في ذلـك هـو النجـاح الـذي يتمتعون بثمرته دون مجهود منهم ويحصلون علـى مكسـبه دون عناء.. أما الفشل – كما قلت سابقًا – فلن يحـرك فـي رءوسهم شعرة اهتمام..

لقد كنت قد وقعت مثل غيري بسبب حسن النية وانسـقنا جميعا خلف تصريحات المسئولين التي تحث على ضـرورة إيجاد بدائل للطوب الأحمر.. فقد كانت تصريحاتهم لا تستند إلى خطة مدروسة تحدد عدد المصانع فـي كـل محافظـة والطاقة الإنتاجية لكل مصنع وذلك لا يـتم إلا بنـاء علـى

معلومات تخطيطية معروفة عن حجم البناء السـنوي لـدى القطاع الخاص والقطاع العام..

وبما أن هذه المعلومات مجهولة لدى السادة الأفاضل فـي وزارة التخطيط الذين يجهلون – حتى – تعداد سكان مصـر فقد سارعنا إلى الحصول على تراخيص بناء هذه المصـانع دون أن يمنعنا أحد.. حيث يكون هـذا المنـع فـي صـالح المستثمر إذا قيل لـه: فكّر في مشروع آخر لأن التراخيص المعطاة لمن قبلك تغطى الطاقة الإنتاجية المطلوبة للفترة من الآن وحتى عام كذا..

لقد غرقت مصر في التخبط والعشوائية والنظام (الكُفتـة) منذ أمدٍ طويل، ولا أحد يدرى ماذا يحـدث ؟.. أو.. لمـاذا يحدث ما يحدث ؟.. أو متى يتوقف ما يحدث ؟..

كان من بين الذين أصابهم الضرر المهندس هشـام ابـن رئيس الوزراء الأسبق مصطفي خليل.. فقرر هذا المهنـدس أن يجمعنا في رابطـة أسـماها رابطـة منتجـي الطـوب الأسمنتي.. واجتمعنا عدة مرات.. وتمكـن هشـام بأخلاقـه الطيبة ناهيك عن اتصالاته العالية من إقناع مصطفي أمـين أن يكتب عن مأساتنا.. فكتب مرتين.. ثـم أقنـع مصـطفي

حسين وأحمد رجب أن يرسما مأساتنا فرسما لنا (كعبـورة) عضو مجلس الشعب وهو يقوم بتجريـف حديقـة مجلـس الشعب.. وعندما طلب من أحمد بهاء الدين أن يكتـب عـن مأساتنا رفض أن يفعل ذلك قبل أن تصله الأرقام الدالة على حجم الاستثمار المدفوع في هذه المصانع التي توقفت قبل أن تبدأ.. وقام هشام بإسناد مهمة الحصول على هـذه الأرقـام بالاتصالات المباشرة بواسطتنا مع أصحاب هذه المصانع في كل المحافظات.. وكان علي أن أمر علـى المصـانع فـي منطقتي الواقعة بين مدينة " حلـوان " ومدينـة " الصـف " للتعرف على رأس مال كل مصنع وكان عددها أكثر من ستة وعشرين مصنعا..

وعندما اجتمع لدى المهندس هشام الرقم النهائي واطلعنـا عليه أصـابنا الـذهول (ثلاثـة مليـارات مـن الجنيهـات المصرية).. وكتب أحمد بهاء الدين منـددا بهـذه الفوضـى اللاعقة لأموال المصريين.. فمصانع النسـيج فـي أزمـة.. والريان.. والشريف.. والسعد.. يضحكون على الناس علـى مرأى من الحكومة بل وبمساعدة الحكومة.. فلمـاذا تـدمير مصانع الطوب الأسمنتي التي هرول العائدون من السعودية

والخليج متسابقين لبنائها ظنا منهم أن الحكومـة جـادة فـي طلبها لبدائل الطوب الأحمر في الوقت الذي ثبت فيه ضعف الحكومة أمام مافيا التجريف ؟..

لقد تجاوزتْ شركتي مأساة ركود المبيعات لمنتج الطوب عندما وجدت المنفذ المناسب للتسويق وهو تسليم هذا المنـتج في شكل حوائط منَفذة في سائر العمارات التي تعاقدت مـع الحكومة بشأن بند المباني بها.. حتى وصل بنا الحـال فـي الشركة إلى شراء منتجات المصانع المجاورة التي نثق فـي جودتها بعد أن عجزت طاقة مصنعنا على إسعافنا للسـيطرة على عقود التنفيذ التي انهالت علينا.. ولقد تكبدت في ذلـك مجهودا شاقا كلفني أن أخرج في الصباح الباكر وأعود قرب العاشرة مساء يوميا وبلا كلال دون سائق لسيارتي يسـاعدني في هذه الرحلة اليومية إذ يبدو أن النجاح يغرى بمزيدٍ مـن النجاح.. وإرهاق العمل الناجح لا يعـد – فـي نظـري - إرهاقًا، فوق أنني من النوع الذي لم يرتب ساعات يومه على نومة القيلولة، فليس من المهم أن تحدث.. وإذا كان لابد لهـا أن تحدث فنصف ساعة تكفيني.. يكفيني نصف الساعة وليس من المهم أن أنال هذا على سريرٍ مريح ولكن يكفيني أن ألقي

برأسي فوق ساعدي المرتكزين على ظهر المكتب وأغفو لدقائق يلوذ فيها كل من حولي بالصمت.. كنت أعود مرهقًا لألتقط أنفاسي بعد حمام ساخن وعشاءٍ مزعجٍ وجلسة رائقة مع الأولاد حول التليفزيون.. وصارت حياتي هكذا طوال ثماني سنوات كنت لا أكسر مللها إلا بسفرة سريعة إلى مكتب الرياض.. محققًا عمرة رائقة في طريق عودتي في أغلب السفريات..

لم يصبح المصنع هو الذي يستوعب مني كل هذا الوقت عندما استدرجني صديقي المهندس الماكينة شريف عبد العزيز للموافقة على تولى زراعة مساحة من الأرض تزيد عن الأربعين فدانًا بجوار أرض المصنع.. وتحمست لذلك بعد أن تعاقدنا مع أستاذ جامعي بكلية الزراعة للإشراف (علميا) على زراعة بستان من الفاكهة بهذه المساحة.. وهكذا أصبح يومي مقسما في الانتقال من المصنع إلى المزرعة بتلذذ من يملك الإحساس بأنه يصنع شيئًا مثيرا ولازما وإيجابيا..

كنا نزرع على الطرق الحديثة.. ومنها طريقة الري بالتنقيط.. واخترنا أن نستورد هذا النظام من برنامج

المساعدة الأمريكية الذي كلفنا يومها (ستين ألف دولار فقـط !!) واقترح هذا الأستاذ أن نـزرع شـجر التـين ملاصـا للطريق.. تليه أشجار العنب في الوسط ثم أشجار الجوافـة.. ورحنا نمهد الطرق بين هذه الأحـواض.. ورحـت أرقـب الأشجار وهي تنمو وقلبي يخفق بالفرحة كلما زاد ارتفاعها..

وكانت الصدمة الأولى عندما أصاب الشلل جزءا كبيـرا من حقل الجوافة.. وجزءا من حقل العنب.. لم نعرف السبب إلا أن هذا الأستاذ هدأ من حزننا طالبا المال الـلازم بعمـل شتلات جديدة.. ولكنه هرب بما أخذه مـن مـال.. كلفـت صديقي شريف بالتعرف على حقيقة موقـف هـذا الرجـل فاكتشف شريف أن صاحبنا اعتبر ما وصله من مـال هـو مستحقاته عن المساحة المزروعة رغم أن العقد ينص علـى المحاسبة بعد عام من الزراعة تكون فيه الأشجار صـحيحة وبالمواصفات العلمية الموضحة بالعقد.. وتسـهيلاً للأمـور تصدى شريف وناوله مبلغًا جديدا متحملاً مغبة ذلك فيما لـو لم يلتزم هذا الأستاذ الجامعي الذي يقوم بالإشراف لشـريف على مزرعته الخاصة بمديرية التحرير.. ومع هذا فقد هرب صاحبنا مكررا موقفه الأول.. ولم نفهم إلا متأخرا أن هـذا

الأستاذ أكتشف أنه لا أمل في نجاح هذه المزرعـة بعـد أن ضربت الملوحة قوام ماء البئر الذي نروى منه الأشجار..

لقد احتفظ لنفسه بهذه المأساة ولم يبلغنا بها قبل أن يتمكن من تحصيل (مستحقاته) التي لا يجب أن يحصـلها إلا بعـد الوصول بالأشجار إلى بداية (الحدية الإنتاجية)..

لقد تعلمت من هذه الحادثة أشياء كثيـرة مـن أهمهـا " وجوب اتخاذ القرار الملائم في الوقت الملائم دون تـردد.. فقد لاحظت ذات مرة أن هذا الأستاذ داخل المزرعـة فـي دقائق بسيارته وخرج بعـد دقـائق دون أن يكلـف نفسـه بالنـزول من السيارة لفحص المزروعات.. ومع هـذا فقـد ركن عند البوابة وكتب تقريرا بزيارته مليئـًا بالملاحظـات والتوصيات التي ثبت أنها تقليدية ومحفوظة.. تعجبت وأنـا أشاهده من بعيد في وقفتي بالمصنع أنه خرج بهذه السرعة.. كنت أرتدي جلبابا ولم تكن سيارتي أمام المكتب ومن هنا فهم أنني غير موجود.. وعندما فوجئ بي أقطع عليـه الطريـق مبتسما وأنا أردد: إنت جاي تزور السـكة يـا دكتـور ؟.. تلخبط.. وظل يبحث عن مبرره الملائم ولما لم يجده.. زادت لخبطته..

أحسست أنه غشاش.. ومع هذا فلم أبتر علاقتنا به فورا.. وهذه غلطة.. وكان لي أن أُعيـد تقييمـه علـى المسـتوى الإنساني وأنا أسمع حكاياته المزعجة التي يرويها بفخر نحو زوجته التي أصبحت طليقته وكيف ساعده شقيقه المحامي في إذلالها بتضييع حقوقها وتقليل مسـتحقاتها اللازمـة لتربيـة أولاده منها..

وكان لابد أن أحتقره وأنا أراه (يفاصل) بائع الفاكهة فـي ملاليم بمنتهى الحدة.. ولم يفهم لومي له من أن هناك صدقة مستترة يمكنه تقديمها بإكرام هذا البائع بإعطائه أكثـر ممـا يطلب وليس بتقطيع لحمه..

وكان لابد أن ألتفت إلى سر استغلاله لي في طلب هـدايا بعينها أحضرها لـه معي من الرياض في سفرياتي المتعددة ومنها (شيشة) تدار بالكهرباء سببت لي إزعاجا في المـرور عبر البوابة الالكترونية..

وكان لابد أن أكون حريصـا وأنـا أتهمـه (بالنصـب والاحتيال) في القضية التي رفعتها ضـده بعـد أن هـرب (بالعهدة) مرتين.. وبعد أن ثبت لنا أنه لم ينفق أموالنا علـى تحاليل المياه والتربة قبل تحديد نوع الأشجار..

لقد جنّد شقيقه المحامي وترك كل أركان القضية وركّز على اتهامي له بالنصب والاحتيال ودعم أوراقه بعدد هائل من الوثائق التي تثبت أنه من كبار الاستشاريين الزراعيين في الدولة وأنه تضرر من اتهامي له حتى أنه خسر منصب وكيل الكلية.. وطالب بتعويض هائل من المدعى عليه (الذي هو أنا).. والعجيب أنه حصل على البراءة.. وتمكن من الحصول على تعويض دفعته له صاغرا (!!)..

لقد تركته ينعم بالتعويض.. وتركني متورطًا في المزرعة التي حاولت إنقاذها بعد أن رأيت بعيني ثمار التين ذات الكم الهائل فوق أشجارها تتحول من اللون الأخضر إلى اللون البني دون أن تتفتح ثم تذبل وتسقط بسبب ملوحة المياه.. وكان الحل هو خلع الأشجار وإبادة هذا البستان الزائف الذي يستوقف كل من يمر عليه في هذا الجبل مأخوذًا بالدهشة والسرور لمنظره الرائع.. دون أن يعرف أنه منظر فقط لا يحمل في داخله جوهر الجدوى والنفع..

قبل قيامي بنزع الأشجار – متعاقدا مع هيئة الميكنة الزراعية للقيام بحرث الأرض بأشجارها – اتصلت بمخرج بالقناة الثالثة لأسجل للناس عبر برنامجه الجديد (دنيا جديدة)

وأروى قصة مستثمر زراعي تورط بـدفع أموالـه لإحيـاء أرض جبلية بواسطة مياه من بئر ارتوازي ثبت أن ما به من مياه مالحة لا تصلح لري المزروعات وأن هـذا المسـتثمر حاول الحصول على مياه من الترعة المجاورة التي تبعد عن المزرعة مسافة تقل عن الكيلومترين إلا أن المسئولين بإدارة ري حلوان رفضوا ذلك (لأن المقننـات المائيـة لا تسـمح) ويتساءل هذا المستثمر المسكين: إذا كانت مزرعتي تبعد عن النيل بمسافة أربعة كيلومترات.. وتبعد عن الترعة بمسـافة تقل عن الكيلومترين فماذا عن الأراضي التي تبعد عن هـذه المصادر الهامة بمئات الكيلومترات ؟..

لقد علا صوتي في الحديث وتساءلت ببساطة ألا تعتبـر الدعوة إلى غزو الصحراء دعوة لا تحمل صدق التوجه ؟..

كيف تموت زراعاتنا القريبة من النيل في الوقـت الـذي يشاهد فيه ركاب الطائرات المتجهة من الرياض إلى القاهرة كثافة المساحات الخضراء التي راح يبثها السـعوديون فـي أرجاء صحراء بلادهم ؟.. السعوديون الذين لا يملكون نيلاً..

لقد تذكرت - ولا أدري إن كنت ذكرت ذلك في البرنامج - ما كتبه السادات في أوراقه من خـلال الـراوي أنـيس

منصور أن " مناحم بيجن" عندما طلب أن يحلـق بالطـائرة حول القاهرة شاهد الصحراء تحيط بالبلاد القريبة من النيـل وتساءل " الضيف " أمام " المضيف " عن سـر فشـلنا فـي ذلك.. واكتشفت أنني واحد ممن يحملون التعبير عـن هـذا السر.. وهو أننا نعمـل بعقليـة رجعيـة متخلفـة ونظـام بيروقراطي متعفن.. وإن كان ذلك الرأي قد داخلنـي منـذ عشرين عاما فمن المؤسف أنه يزداد تأكيدا بعد مرور هـذه السنوات التي رحنا نتأخر فيها ولا نتقدم..

لقد خلعت الأشجار منتظرا أن يتصل بي - على الأقل – السيد وزير الزراعة كما توقع كل من شاهدني لا ليعتذر لي عن خسارتي.. ولا لكي يعاقب موظفيه.. ولكـن ليسـاعدني على البدء من جديد.. ولكن طاشت كلماتي في الهواء.. كأي كلمات مظلومة تطيش في الهواء في مصر..

وخضت من جديد بداية أخرى متجها إلى زراعة القمـح مدمرا نظام الري بالتنقيط (كلفني ٦٠ ألف $ فقط !!) متجها إلى شراء نظام آخر وهو نظام الري بالرش الذي يتناسب مع المطلوب في ري القمح..

لقد حققت رقما مخجلاً في إنتاج القمح وهو ثلاث أرادب للفدان.. وهو رقم لو سمعه أبي لنهض من رقدته وصـفعني ثم عاد.. ومع ذلك فلم يأخذني اليأس وعكفت على إصـلاح الأرض ورفع كميات من الزلط منها وإضافة السباخ البلـدي لها وقلبتها بالمحاريث العميقة مـرتين طـولاً وعرضـا.. وسويتها بالجريدر الذي يحقق أفقية دقيقة لسطح الأرض.. ثم تعاقدت مع السطّارة التي تنثر البذور علـى شـكل سـطور منتظمة وكانت البذور من نوع اسمه " سخا ٤٥ " قيـل لـي إنها تقبل ملوحة المياه..

لقد تحسن رقم الإنتاج ووصل إلى ثمانية أردب للفـدان.. وكانت حساباتي تقول إنه قد حدث شيء جديد لم يحدث فـي تاريخ المزرعة وهي تـوازى قيمـة الإيـراد مـع قيمـة المصاريف في هذا العام.. أي أنه لا مكسب ولا خسـارة.. جميل.. ولكنك عندما تضع في حساباتك أن تكلفة الكهربـاء الشهرية هي ثلاثمائة جنيه.. فالأمر يختلف إذا فوجئت أنهـا ارتفعت بقدرة قادر إلى ألف وثلاثمائة جنيهـا فجـأة وبـلا مقدمات.. إذ إن الزيادة التي طرأت على التكلفة مقدارها اثنا عشر ألفًا من الجنيهات في العام الواحد.. وهـذا المبلـغ لا

يمكن تعويضه إلا بزيادة محصـول الأرض بمقـدار ١٦٠ أردبا في الزرعة الواحدة على أساس أننا كنا نـورد القمـح للدولة بسعر ٧٥ جنيها للأردب.. والمؤشرات الفنية تشـير إلى عدم إمكانية الحصول على مثل هذه الزيادة في الإنتـاج التي تعادل ٦,٥ أردب للفدان الواحد.. أي زيادة قدرها ٨٠% في العام التالي.. وهذا صعب خاصة إذا عرفنا أن مياه البئر تزداد ملوحتها كلما زاد السحب منها.. أي أن الإنتاج يمكـن أن يقل في العام التالي.. إذن:

- ما العمل: ؟..

العمل.. أنه لا عمل.. اجمـع المواسـير.. ضـعها فـي المخازن.. سرح العمال.. لأن الحكومة الماهرة قضت علـى البقية الباقية من أملنا عندما رفعت أسعار الكهربـاء (لكبـار المشتركين) بنسبة ٣٣٠ % فجأة لماذا ؟.. لأن صندوق النقد الدولي نصح بهذه الزيادة لصالح واردات الخزينة المصرية.. فهو من المؤكد قد اتجه إلى ذلك ليتيح للفقراء التمتع بـبعض أموال الأغنياء.. والعنوان يبدو بريئًا ويتسم بتحقيق العدالـة الاجتماعية.. ولكن هل فكر كبار المسئولين عندنا في تحليل آثار تطبيق هذه الزيادة على المـزارعين قياسـا بأصـحاب

المصانع الضخمة التي تحقق مكاسـب لا يمكـن للزراعـة تحقيقها ؟..

لقد أخذوا – كما يقولون – العاطل في الباطـل وطبقـوا تعليمات الصندوق بغباء كان من نتيجته أن انسحبت أنا مـن (تخضير الصحراء) ولا أدري كم هم عدد الـذين انسـحبوا مثلي.. ولكن من المؤكد أن الذين صمدوا لـذلك هـم زراع البانجو.. أو الذين لا يملكون محولات كهربائية مـن وزارة الكهرباء..

إن التشبيه الذي أعجبني كرجـل دخـل مسـتثمرا فـي الصناعة والزراعة في وقت واحد هو أنني حققت أرباحا من المصنع ثم صنعت حفرةً بجوار هذا المصنع ُألقي فيها بهـذه الأرباح إلى غير رجعة.. هذه الحفرة هي المزرعة التي كان يشاهد الشركاء مجهودي فيها دون أن يضعوا أيـديهم فـي جيوبهم أمامي إلا لالتقاط علب سجائرهم.. قلت لنفسي: إذن فأنا مواطن مصري حتى النخاع.. لأنني فعلـت مـا تفعلـه حكومتي.. التي باعت الشركات ثم حفرت لأموال البيع حفرة ألقت بها فيها.. هذه الحفرة هي (توشكي)..

إذن ففي حياة كل منا (توشكي).. في حياة كل منـا فراغٌ أسود هائل يأكل الكواكب والنجوم..

وبارت المزرعة..

ولم أكن أعلم أن المصنع نفسه في طريقه للبوار ليلحـق بالمزرعة بعد عامين.. لأسبابٍ حكوميةٍ بحته.. فقد وعد ا مصر بوزير مالية اسمه (الرزاز) استطاع فـرض قـانون ضريبة المبيعات على الشـعب ليحقـق مليـارات جديـدة للحكومة.. وبعد سريان القانون بعدة شهور أطلـق رجالـه (الموعودين بنسبة من تحصيلاتهم كمكافآت) لتحقيق أعلـى إيراد ممكن يثبت به أنه كان محقا في عدم ترك هذه الأموال في جيوب الناس.. فالحكومة أولى بها..

كان القانون يقضى (بجوازية) تعديل العقود القديمة بـين الشركات وأصحاب الأعمال.. حيث يجب أن يقوم أصـحاب الأعمال بزيادة عبء الضريبة الجديدة على الأسعار القديمـة للعقود بين أصحاب العمل والشركات وفي هذه الحالة يقـوم أصحاب الشركات بتوريد هذه النسـبة لمكاتـب ضـرائب المبيعات التي يتبعونها وتلك هي المهمة التي أوكلهـا لهـم القانون (أن يحصل من العميل ويدفع للضرائب).. وإذا ثبت

أن (مؤدى الخدمة) حصل من العملاء ولم يورد فتلك جريمة تعرضه للسجن..

كنت أعمل في بند المباني (كمقاول) مع عديدٍ من الشركات الحكومية.. فاتصلت بهذه الشركات حتى تضيف عبء الضريبة الجديدة ولكنهم رفضوا.. كما رفضوا أن يسجلوا هذا الرفض لي كتابةً.. فالتزمت بدفع الضريبة للعقود الجديدة التي أضفتُ على أسعارها قيمة الضريبة وصرتُ أورد (حق الحكومة) بانتظامٍ شهري.. ولكن (لا أدري لماذا ؟) كنت أكتب على ظاهر النموذج عدة عبارات تفيد أن هذه المبالغ تمثل أعمالنا في العقود الجديدة أما العقود السابقة لفرض الضريبة فلم يتم الدفع عنها بسبب تقاعس أصحاب الأعمال عن إضافة قيمتها.. وكنت أنوه أحيانا لهم سبب تقاعس أصحاب الأعمال ذاكرا أن (جوازية) تعديل العقود منحتهم فرصة الهروب..

زارني أحد المسئولين من المصلحة التي أتبعها واطلع على العقود القديمة وسجل أسماء الشركاء، وفهمت من زيارته أنه سيتولى الاتصال بهم.. ولكنه اختفي..

كان هذا الوضع في علاقتي بهذه الضريبة معروفًا لكـل من حولي كحالة عادية من حالات المتاعب التي يواجهها من يسبح في بركة العمل الآسنة في مصر.. العمل مـع لـوائح وموظفين لا يعرفون الحيادية أو تشجيع المستثمر.. بـل إن بعضهم يستعمل أحيانًا عبارة " ابن الكلب المسـتثمر فـلان" عندما يطلب ملف هذا المستثمر من زميله.. وكان من بـين من يعرفون هذه العلاقة المتشابكة بينـي وبـين المصـلحة صاحب مصنع اسمه (بطروخة).. كـان قـد جـاءني فـي مصنعي الذي هو على بعد خمسة عشر كيلومتر من مصنعه جنوبا حتى أتدخل في مشكلة فنية يعاني منها وهـي تتعلـق بنسبة خلط المواد المكونة للطوبة.. فإن الطوب المنتج لديـه ضعيف القوام وتنفرط مكوناته بسهولة بعد الجفـاف.. أثلـج صدري أن يقصدني أحد المنافسين لحل مشكلته ولمحت مـن زيارته أن هناك من عرفه بشخصي وشخصيتي وأنني لـن أتردد في مساعدته، وقد كان..

بعدها.. استطاع - وبالنعومة التي يجيـدها - الاقتـراب مني.. وعندما امتدت خريطتي في البناء للغير واحتاج الأمر الاستعانة بشراء منتجات من المصانع المجاورة كان بـالطبع

مصنعه أحد هذه المصانع.. إلا أنه وبنعومة أيضا اسـتطاع إقناعي بإفساح المجال له بالعمل مثلي في البناء وذلك بتقديمه إلى أصحاب الأعمال للعمل بجواري.. وقد كان..

وبعد فترةٍ وجدته يزاحمني بشراسة ويعتدي على المواقع محل تعاقدي والتي أستعد لبدء العمل بها.. كان يسارع فـي تشوين كمياته من الطوب في هذه المواقع مقنعا العميل أنني مشغولٌ في مواقع عديدة وسوف أتأخر في البدء فـي هـذا الموقع – ولا مانع عنده أن (يغرى) مهندسا صغيرا بـبعض المال حتى يفسح له المجال، وراح يسبب لي المتاعب..

رحت أتساءل عن هذه الشخصية العجيبة التي قابلَتْ صنيعي معها بعكس ما تفعله الأيادي البيضاء..

عرفت أنه يعمل بأموال مهاجر فلسطيني.. تمكن هـذا " البطروخة " من تزويجه بإحدى قريباته.. وتواطأ معها لسلبه أمواله التي يبدو أنها كثيرة.. وكانت هذه المعلومات كافيـة حتى أواجهه بعنف.. وقد كان..

ربما لا ينسى عمالي إنني هبطت ذات يوم من سيارتي في أحد مواقعي التي شغلها بالعمل رغما عني وطردت عمالـه وأنزلت عمالي أمام مهندسه الذي لم يحرك ساكنًا لعلمه أنني

صاحب العقد.. وهذا حقي.. وبلغه وصولي فجـاء مسـرعا بسيارته دون أن يبدو على وجهه سمات الخجل.. ولينتهـي الحوار بيني وبينه إلى ما قلته له من أنني قد سحبت ثقتي فيه وأنني سأحاربه بنفس سيفه..

لقد تحرك هذا البطروخة ببلاغ سرى ضد شركتي يفيـد أننا متهربون من دفع ضريبة المبيعـات.. وكـان لرجـال الضريبة التي هي في بداية تطبيقها قرون مـن الاستشـعار لمثل هذه البلاغات (التي يمنحـون أصـحابها نسـبة مـن التحصيل إذا حصلوا من المبلّغ عنه !!)..

اكتشف أحد موظفي الشركة عندي – صـدفة - وجـود تحريات ضدنا عن مدى التزامنا بتوريد الضريبة.. جـاءني إحساس غريب أن هناك وقيعة بيني وبين المصـلحة.. وأن التحريات لا تأتى إلا ببلاغ.. تحركت فورا لـدى أصـحاب الأعمال أطالب من جديد بعبء الضريبة عن العقود القديمة.. وتمكنت بصعوبة من الحصول على خطاب (قمت بصـياغته بنفسي) من أن عقودي القديمة لم يطرأ عليها أي زيادة فـي الأسعار.. وهذا يشير – حتما – لمن يقرأ هذه الصياغة أنـه لم يتم دفع قيمة الضريبة.. لقد أنقذني هـذا الخطـاب كمـا

أنقذتني العبارات التي كنت أكتبها على ظاهر استمارة الـدفع الشهري والتي تفيد بتقاعس العملاء عن دفع قيمة الضريبة..

وجاء اليوم المشهود..

كنا في عام ١٩٩٣.. وكنا في اليوم الثـاني مـن شـهر رمضان المبارك.. وكنت قد عدت بـالأمس مـن الريـاض لألحق بفطور اليوم الأول مع أولادي.. وكنت قد وصلت قبل صلاة الظهر بقليل؛ فتفقدت العمل بالمصنع ودخلـت حمـام الإدارة لأتوضأ لصلاة الظهر.. وإذا به خلف ظهري.. عقيد شرطة يحمل مسدسا.. سألني عن اسمي ثم أتبع سؤاله بقوله: أنت مقبوض عليك.. سألته عن نفسه وعرفت أنه مـن إدارة مباحث التهرب الضريبي.. وبهدوء أفهمتـه أننـي سـأكمل وضوئي وأؤدي صلاتي وألحق به في غرفة مكتبي هـذا إذا لم يكن جاهزا للصلاة معي الآن.. (فيما بعد تحدث هذا العقيد مع رئيسه بشأن هذا المستثمر الهادئ الـذي لـم يضـطرب لمشاهدة هذه القوة المسلحة التي قوامها سيارتان من سيارات الشرطة وما أحاطهما من تجمع للأهالي لمعرفة سـر هـذه (الكبسة) على أحمد ماضي العائد بالأمس مـن السـعودية.. (كان الإرهاب على أشده في هذا الوقت)..

أديت صلاتي بهدوء.. وقبل أن أنوي الصـلاة.. ناديـت على مدير المصنع آمرا له أن يسلم (سيادة العقيد) أي أوراق يرغب في تحريزها..

عدت إليه.. وسألته إن كان قـد قـرأ أوراق التحـري.. فأجابني بالإيجاب.. سألته عن خطابٍ يشير إلـى أننـي لـم أحصل على قيمة الضريبة من العملاء وهذه حقيقة وضـعها العملاء بشكلٍ ملتوٍ في الصياغة من أن العقود القديمـة لـم تحصل على زيادة في قيمتها.. وافقني علـى ذلـك وطلـب الملف من سيارته.. وأخرج الخطاب.. فوجدني أُخرج له من أوراقي المسودة التي بخط يدي والتي تثبت أن الخطاب مـن صياغتي " لأنزع من العميل بلطف إقرارا أنه مـارس مـع الحكومة التقصير في الدفع ولـم أمارسـه أنـا ".. تعجـب الرجل.. وكان قد تولاّه الإعجاب بهـدوئي.. فطلـب منـي تحريز كل أوراق المكتب.. ومرافقته في سيارة الشـرطة.. وبهدوء شديد أفهمته أنهم سيسيئون إلى شخصـي فيمـا لـو تحركت معهم مقبوضا علي.. وأن هيبتي في هـذه المنطقـة ستنهار إذا حدث ذلك.. ورجوته أن يتحرك هو أولاً بسيارته وسألحق به بسيارتي إلى المأمورية التي أعرفها.. لقد كانـت

نهايته الناعمة تختلف عن بدايته الخشنة.. إذ وافقني على مطلبي.. وتحرك فعلاً قبلي.. فتلكأت قليلاً حتى يدخل الناس إلى مكتبي وقد أخذتهم الحيرة عن سر هذه الهجمة التي تليق بتاجر مخدرات أو عنصر من عناصر الإرهاب الذي يضرب أمن المجتمع حاليا..

فأفهمتهم أن الموضوع يتعلق بأموال الضرائب وأن هناك خطأ في الإبلاغ وأن الرجل حمل الأوراق التي تدل على براءتي..

لقد فعلت ذلك حتى أحقق التوازن المطلوب بشأن سمعتي.. فالناس لا يعرفون الحقيقة وإذا لم يعرفوها فسوف يقومون بتأليف حقيقة أخرى من عندهم.. وما أقسى التأليف في هذه الأحوال.. إنها كرةُ الثلج الصغيرة التي تتدحرج بعفوية الاعتقاد فتكبر وتكبر إلى أن تتحول إلى حقيقةٍ مزعجة..

كان المطلوب مني ٩٠٠ ألف جنيه !!.. فالتقدير في المبالغ محل تهربي على ضوء حساباتهم البلهاء ٣٠٠ ألف جنيه والقانون يعاقب المتهرب بدفع ثلاث أمثال المستحق.. بالإضافة إلى غرامة ٢٦ % كل عام إذا تأخر الدفع عن

موعده أي أن هذا المبلغ سيزيد سنويا بمقدار ربـع مليـون جنيه.. كانت دفاعاتي شرعية وعاقلة وهادئة حتى أن أكبـر الموظفين في المأمورية وكان على وشـك الإحالـة علـى المعاش أقر أمامهم ببراءة ساحتي، وأن هناك خلافًا فنيا عن مدى خضوعي من عدمه.. وأعلن أنه مستعد للتحـول إلـى الجانب الآخر - التحول إلى جانبي - وحمل هـذه القضـية على كاهله من موقعه الجديد في مكتـب المحاسـبة الـذي سيديره بعد المعاش..

لم أُحجز في السجن ليلة واحدة رغم ما شاهدته أمامي من رجال الأعمال مكبلين بالحديد.. بعضهم يرتدى بدلة السـجن وبعضهم لم (يهنأ) بارتدائها بعد.. إلا أن ما لاحظته أن سيدةً تبكي بحرقةٍ خاف بعلها (الشياكة) المكبل بالحديد (!!)..

انتهي الأمر إلى طلب المصالحة شـرط أن أدفـع مبلـغ تقديري حدده وكيل النيابة بستين ألف جنيه.. (طبعا لا علاقة لهذا الرقم بالأرقام الإرهابية السابقة.. ممـا يـدل علـى أن الموضوع يتسم بالعشوائية والرغبـة فـي التحصـيل.. أي تحصيل)..

لقد رفضت ذلك.. رفضت التصالح.. فهذا في حـد ذاتـه إقرار بالتهمة حتى أن شركائي (الأبرياء البررة) !! خـافوا من موقفي الرافض وتعجبوا من طلبي للنيابة أن يحول ملفي إلى المحكمة.. فلن أدفع ستة جنيهات وليس ستين ألفًا..

وقد كان..

خرجت بكفالةٍ صغيرة (خمسة آلاف جنيهـات).. وكـان مقدار الكفالة ينبئ عن تفاهة القضية.. فالكفالات فـي هـذه القضايا تصل إلى مئات الألوف من الجنيهات.. لقـد دلنـي رجل المعاش المتعاطف معي على محامٍ يثق به.. وعرفـت مقدار ثقته بنفسه وببراءتي عنـدما علـت ثغـره ابتسـامة استخفاف - بعد قراءة القضية - ثم تبعها بنظرة امتعـاض لذلك (الهبلْ).." هكذا قال ".. الذي تقوم به المصـالح ضـد المستثمرين بهدف.. التحصيل..

قررت إغلاق المصنع.. ووقف النشاط.. وزففت هذا الخبـر لوكيل النيابة (المتشدد) في إحدى جلسات التحقيق..

: على فكرة يا فندم.. أنا اليوم أضفت إلى رصيف البطالة في الشارع المصري ٣٦ "صايع " جديد..

سألني بلا اهتمام: - يعني إيه ؟..

يعني أوقفت النشاط.. وسرحت العمال والموظفين..

وكانت إجابته هزة رأس لا مبالية يقول فيها: وإيه يعنـي ؟.. طُظ فيك وفْ عمالك..

وظلت قضيتي بالمحكمة (مدة بسيطة).. يـا دوب عشـر سنوات.. وقضت ببراءتي في نهاية العام الماضي، حتى أنني تلقيت هذا المنطوق / الأمل بفتور ولا مبـالاة.. (لا أدري.. لماذا ؟)..

* * * *

(٥)

جهة الميلاد: القرضا مركز كفر الشيخ

جهة الإقامة: أرض الجولف ... القاهرة

إذا كان الإنسان تاريخًا.. فهو أيضا جغرافيا..

ويا لكثرة ما حكيته لأحبائي عـن إعجـابي بـالأتوبيس الأحمر (Red line) الذي كنت أهوى ركوبه في لندن في رحلة سياحية يعقدونها لمن يرغب من السياح للتعرف علـى المدينة بكل تفاصيل مبانيها وشوارعها وساحاتها..

لقد لاحظت عبر الترجمة العربية - التي تصـلني مـن ميكرفون صغير أضعه في أذني وأنا أشاهد هذه المعالم مـن الدور العلوي المفتوح بلا سقف - أن بيوت الشعراء والأدباء تحظى بكم هائل من الفخر والاهتمام في برنـامج الإنجليـز السياحي.. فالإشارة إلى موقع المنزل تـتم عنـد وصـول الأوتوبيس إليه لحظيا.. وتجد المرشد المتحدث يعلن: (انظر إلى يمينك.. هذا هو المنزل الذي ولـد فيـه وعـاش ولـيم شيكسبير).. ثم يحدثك عن هذا الرجل العظيم.. ذاكرا بعض

أعماله.. باثا بعض حوارات مسرحياته وتصفيق الجمهور لها عبر تسجيل كانوا يضفرونه مع حديث المذيع..

لقد فعلوا ذلك مع منزل " برناردشو ".." وصمويل بيكيت ".. " وسومرست مـوم ".. وأصـبح تـاريخ هؤلاء العظماء جزءا من جغرافيا المكان والزمان.. حتى أن حلاق " ديانا " نال بعض هذا الاهتمام كمكان أثيـر كانـت تقصده الأميرة المعذبة لقص شعرها.. وكان مـن بـين مـا يعجبني خفة دم الحكي كأن يقول المذيع.. " إذا كنتِ ترغبين يا سيدتي في التمتع بقصة من هذا الحلاق الرائـع فيمكنـك تحقيق ذلك ولكن بعد ثلاثة شهور من الآن"..

من منا لا يعتز بالمكان الذي ولد فيه ؟..

ولكن إذا اعتزت به البشرية فمـن المؤكـد أن صـاحب المكان يستحق ذلك.. أما الشعور بعزة وحميمية المكان فهـو شعور إنساني يتسم بالوفاء.. وليس شـرطًا أن يجيـد هـذا الشعور كل من يتعامل بذائقتـه الأدبيـة والإنسـانية فقـط كالمبدعين ولكن يجب أن يجيده كل مـن يتعامـل بذائقتـه الإنسانية من باقي الناس..

لقد لاحظت أن بعض من يسر ا عليهم من معارفي من أبناء الريف أنهم أعلنوا عن هذا اليسر بالتخلي عن بيـوتهم الطينية القديمة التي ولدوا فيها وخرجوا للناس بمنازل فخيمة في أراضٍ جديدة.. لا عيب في ذلك.. فأن تنشـد الأفضـل والأروع هو شيء من حقك.. ولكني وجدت أن هذا الحـق يجب أن يشاركك فيه – بالرأي – المكان نفسه.. ولعل هـذا رأى به شطط.. ولكن أين الشطط في رأى يأتي من رجـل لديه قناعة أن الفـن والأدب مـا همـا إلا وسـيلة لتفجيـر المضمون الروحي للأشياء ؟.. فأنا أكاد أودع فرشة الأسنان – المستهلكة – بالدموع وأنا ألقيها في سلة المهملات عنـدما آتِ بواحدة جديدة.. وكثيرا ما قبلت أجسام سياراتي المباعـة أمام من اشتراها وهو يتسلمها مني والرجل ينظر إلـى مـا أفعله باستغراب.. وهناك وقائع في ذاكرتي لا أنسـاها فـي حين ينساها غيري لتفاهتها.. ومنها واقعة الرجل الذي شاهده حارس العمارة يهبط من سيارته ثم يغلقها ويتجه إلى سـقفها فيمطره بالقبلات.. لقد صعد هذا الرجل إلى بعض معارفـه في مكتبهم بالعمارة وجلس بينهم قليلاً ثم مات في جلسـته..

إذن لقد ودع الرجل الطيب سيارته وبثها شـعوره بـالفراق ودنو الأجل قبل أن يرحل..

عن نفسي لم ألتفت لكل ما أُحيط بهذه الواقعة من تفاصيل حول حياة الرجل وأمواله وأولاده وعلاقاته ولكني كنت أتأمل دامعا واقعة تقبيله للسيارة ذلك التصرف الـذي أفعلـه مـع سياراتي المباعة..

ألم تشاهد فنانًا يحدث لوحته..؟..لقد حاول مايكل أنجلو أن يستنطق تمثاله الشهير (موسى) وضربه بالإزميل عدة مرات على ركبته حتى ينطق.. ومازالت هذه العلامات الملتاثة على ركبتي (موسى) الجماد في متحف اللوفر..

وألم تشاهد نجارا يتأمل الكرسي الـذي صـنعه بمـزاج ويتحدث معه قائلاً لمن حولـه عبارات كثيرة مـن المـديح حول هذا الكرسي (المزيكه) أي الذي يكاد يتحـدث ويبعـث الموسيقى الناطقة.. عن نفسي أقول:

الأماكن لها رأي.. فأنا أدخل غرفتي التي لم تستقبلني في القرية منذ أسابيع ملقيا السلام وأخرج منها مودعا بالسـلام.. لعل بعضهم يفعلها مخاطبا الملائكة.. وهذا رائع.. ولعل ذلك موجود في جزءٍ من تصرفي.. ولكني أحـس كثيـرا أننـي

أتوجه بذلك السلام إلى الفراغ والحوائط والمفروشات والكتب لشعوري أنهم مازالوا في انتظاري ولم يتحركوا تأدبا منهم ووفاء لي وتوحشًا لمشاهدتي..

وكان من أكثر ما حملته لزوجتي من إعزازٍ عدم تعليقها على تصرفي المفاجئ والملهوف على إعادة بناء منزل أبي في القرية قبل أن نشترى لنا إحدى الشقق بالقاهرة.. قالت لها: القاهرة موجودة.. لن تذهب إلى مكان آخر وآلاف الشقق معروضة ستجد من يشتريها بسهولة وأنا منهم.. ولكن في حياتي موضع واحد أعتز به وأحبه.. إنه منزل أبي الذي جلست على مصطبته وأنا طفل صغير.. أشاهد البط والإوز يسبحان أمام عتبة الباب في بحيرةٍ من المياه – تحركت من الجدول القريب – التي أرسلها الفيضان مثل آلاف البحيرات التي كان يوزعها على القرى قبل أن يمسكها السد العالي بين يديه في السنوات التالية..

وعندما أحببت الفن ومارستُه كانت لقطة الإوز العائم في البحيرة تستهويني وأرسمها من خيالي القابض على هذه الصورة الأثيرة..

حكت لي أمي أنني سبحت خلف هذا البط وزلت قدمي في حفرةٍ عميقة.. وغِرقت.. حتى لم يظهر مني سوى جلبـابي الذي انتفخ عاليا كفقاعـةٍ بفعـل الهـواء، نـادت الصـبية (مبروكة):

" عيل غرقان يا ولاد الحلال "..

أحست أمي أنّه أنا.. ركضت نحوى في هلع.. وحملتني.. قالت إن أنفاسي كانت مقطوعة.. وضعتني أمامها ممددا أمام الفرن الحامي.. ولم أتحرك.. شرارة نـار لسـعتني عنـدما طارت من الفرن ولم أتحرك.. راحت تبكي والنساء تبكـي حولها.. ولكني فلت من الموت عندما لفظت من جوفي كمية هائلة من المياه.. قالت أمي إن حرارة الفرن هي التي قامت بهذه المهمة.. وأنا أقول الآن إنّه وعلى حدِ علمـي لا شـأن للحرارة بذلك فقد كان المطلوب – ولم يفعلـوه – أن يتـدلى رأسي إلى أسفلٍ مقبوضا على رسغي مـن أعلـى لتتـدفق المياه.. وكيف لها أن تتدفق وأنا موضوع أمام الفـرن فـي وضعٍ أفقي ؟.. إنها معجزة منحها ا لي حتى أنعم بالحياة.. معجزة بدأت بصرخة الفتاة (مبروكة)..

لقد ظلت (مبروكة) - التي كانت صبيةً صغيرةً في طريقها إلى الحقل وقت الحادث – إحدى أهم النساء اللاتي أنظر إليهن بحبٍ وإعزاز دون أن أفاتحها في واقعة إنقاذها لي من الغرق.. فلعلها قد نسيت هذا الحادث البعيد.. ولكن عندما جاء شاب للعمل في مصنعي وقد فهمت من اسمه أنه ابنها وضعته في مكانة لائقة في قلبي دون أن أوضح له ولمن حولي سبب ذلك.. إذ إن السبب سيكون مضحكًا وكوميديا بالنسبة لهم.. ولعله من سوء حظي أنه كان بالنسبة لزملائه شخصيةً مستفزةً كثيرة المشاكل حتى أنه عقد خصومة مع بعضهم من أجل نصف جنيه في حسابٍ متداول بينهم.. كنت أتحمله ولا أوقّع عليه أي جزاء وأضاحكه وأُحول موضوعاته إلى طُرفٍ نجتذب بها الضحك والتسلية.. وهو سعيد بمعاملتي التي لا يعرف سرها..

(سر إيه يا بني.. دا إِنْتَ ُأمك صاحبة أعلى صرخة أمدتني بالحياة ؟..)

هل هناك علاقة أو تشابه بين هذه الصرخة البريئة في طريق الحياة وصرخة أمي المنبئة عن وصولي للحياة ؟.. لست أدري ولكننا يجب أن نعلم أننا في النهاية صنيعة

الصرخات النبيلة.. صرخة القدوم إلى الحياة.. طلبا للإنقاذ.. وصرخة محاولة الإفلات من الموت.. طلبا للإنقاذ.. أيضا..

كان الشاعر صبري أبو علم ينام ضيفًا في منزلي الجديد بقريتي " القَرضا ".. قال لي إن هذا المنزل جميل.. قلت له: كان بيتًا من الطين.. جعلته كذلك يا صبري وأنا غارق في الحب والسعادة..

تساءل: من الطين ؟.. كان بيتكم من الطين ؟.. قلت له: أجل.. وهذا المكان الذي تنام فيه كان مكانًا لحظيرة البهائم.. وحبكت النكتة " التي لا أقاومها أحيانًا "..

يعني إنت دلوقت نايم مكان الجاموسة..

وصارت مثلاً..

وقد ظل صبري الجميل يحكيها لكل معارفه حتى يتمتع بضحكاتهم..

لقد تعودت أن أُسرع بسيارتي نحو هذا المنزل ظُهر كل ثلاثاء لأتناول الغداء مع أمي.. وأقضى الليلة.. ثم أغادره ظُهر الأربعاء بعد تناول الغداء الثاني معها.. كنت أقابل نفسي هناك.. وتكون متعتي الليلية أن أجاذب أمي أطراف الحديث.. وأرسل في طلب أختي غير الشقيقة زينب؛

لتشاركني السهرة والبقاء معي حتى أسافر.. ومازلت نادمـا أنني لم أسجل هذه الحوارات التي تشاركنا فيها مع شـقيقاتي وهيبة وفاطمة ونعمات وأخي عبيد.. كانت دائما هذه السهرة تثمر عن سياحةٍ رائعةٍ في الحياة.. نضحك لها..

- وازاي يا حاجه شُفتي أحمد وهو بيغرق فـي قنـاة السويس ليلة الحرب ؟..

فتقول لهم:

- كل اللي حكاه لما جه من الحرب أنا شـفته بالليـل قبـل الحرب.. وفسرته للبنات الصبح..

كان العمر يمتد بها.. والنظر يخبو.. والسمع يخفت.. ولم تشاهدني أو تسمعني وأنا أقترب منها ذات ليلة هابطًا إليهـا من شقتي.. كانت تحدث نفسها.. وكـان الحـديث عنهـا.. وعني.. ثم تأمر البنات اللاتي لا يسمعنها.. فهن في الـدور الأرضي يجهزن الطعام..

- ياللا يا بنات.. حطوا لأحمد الغدا..

وأتعجب لهذه المعايشة العجيبة.. ولكن لقد توارى تعجبي وتحول إلى دموع صعدت بها قبل أن تراني.. عندما وجدتها تخاطب نفسها أو تخاطبني قائلة في تساؤل:

- أحمد ؟.. أنا مش عارفة أنا جبتك إزاي ؟..

رحت أقلب هذه الكلمات وأنا ممدد فوق سـريري.. هـل هذه شهادة لها بأنها أنجبت ما يليق لها أن تفخر بـه.. ؟.. أم شهادة لي بأنني جئت كما كانت تمنياتي ؟...

لقد كانت تحب الخير.. وتعشق الكرم.. وكانت تحتفظ لي عند كل عودة بنوع الأفعال التي يجب أن أقوم بها في نطاق خيرها وكرمها.. وكنت جاهزا على الدوام للتنفيذ.. من هنـا فقد أحبتني وعشقتني.. ومنحتني هذا الوسام.. شهادة حب في شكل تساؤل..

وعندما مرضتْ تركت كل متعلقاتي بالقـاهرة ومكثـت بجوار سريرها لأكثر من شهرين محاولاً إنقاذها من المـوت الذي برز لنا في شكل نزيفٍ بالمخ سـحب منهـا الـوعي والإدراك وخفة الدم..

كنت أصعد لأبكي ثم أهبط لألمـس فراشـها الصـامت بأناملي..

ولما كان لابد لي أن أقطع هذه الإقامة أحيانًا لأذهب إلـى القاهرة ليومٍ واحد ثم أعود.. اختارت هي أن تموت في أحد هذه الأيام..

نادت علي أختي نعمات في التليفون: - أحمد ؟..

فهمت من هذا النداء أنها تمهد لقولٍ يستدعى تماسـكي.. قلت لها فورا:

أمك ماتت ؟..

كانت ابنتي طالبة الصيدلة بجواري في السيارة شـاهدتني أولول كالطفل الصغير.. أمسكت بالتليفون وأكملت الحـديث مع عمتها.. ثم راحت ترتب مع أشقائها رحلة السـفر معـي وقتها.. كانوا يستأذنونني لدفنها مع صلاة المغـرب.. الـذي كان سيأتي بعد أكثر من ساعة .. رجوتهم أن يؤجلوا ذلـك إلى صلاة العشاء لألحق بوداعها..

ثم ودعتها على ضوء المصابيح الحزينة في ذلك المـدفن الذي جعلته يليق بها والذي انتهيت من بنائه قبل أيام (!!)

وبعدها..

صار المنزل الأبيض الرائق باهتًا ومظلما وكئيبـا فـي نظري.. لم أتمكن من زيارته منذ آخر نوفمبر ٩٩ إلى أوائل أبريل ٢٠٠٠.. نصفُ عامٍ من الهجر والبعاد.. مـدةٌ كانـت يجب أن أحقق فيها أكثر من خمسٍ وعشرين زيارة لو كانت أمي تتردد أنفاسها داخل هذا المنزل..

حزن مني.. كل شقيقاتي وأخي..

كيف لا تأتى إلى البلد كشـأنك دائمـا ؟.. قلـت لهـم: المغناطيس الذي كان يجذبني تخلى عن جذبي.. فماذا أفعـل والشلل العاطفي قد ألم بي.. ؟..

وكان حظي طيبا.. وكان ربي معي.. عندما ربطني بحالة حب جديدة لتوظيف هذا المنزل من جديد.. توظيفه لاستقبال أحبائي من الشعراء والكُتاب والمبدعين في صـالونٍ ثقـافي شهري بدأ من أبريل عام ٢٠٠٠ وحتـى هـذه اللحظـة.. صالون ولد عفوا وبتلقائيةٍ كأجمل الأشياء التي ولـدت فـي حياتي..

فقد دعوت نفسي لحضور مؤتمرٍ شعري بالمعهد العـالي للخدمة الاجتماعية " بكفر الشيخ " حيث لم أكن مـدعوا مـع الشعراء: كمال نشأت وعبد المنعم عـواد يوسـف وحـزين عمر.. وفؤاد بدوي..

لقد اتكأت إلى الدعوة التي وجهت لهؤلاء الشعراء الـذين أحبهم لإلقاء الشعر في إقليمي.. حضرت معهم للترحيب بهم واستضافتهم.. وفي عمق ضميري كسر حدة الغيـاب الـذي طال عن منزلي: مرتع الحب والذكريات..

ليلتَها انبهرت بهذا العدد من الشعراء والشاعرات من أبناء المحافظة الذين يقولون الشعر الجميل..

السعيد قنديل.. السعيد شحاتة.. السـعيد ديـاب.. حسـام الشهاوي.. حمدي على الدين.. إيمـان السـباعي.. السـيد غازي.. ُأميمة إسماعيل.. وآخرين..

أرسلت إليهم أن ينتظروني.. رجـوتهم ألا ينصـرفوا.. ثـم دعوتهم على فنجان شاي في منزلي بالقَرضا.." أريد التعرف عليكم.. أريد مجالستكم"..

نقلت بعضهم في سيارتي.. واسـتدعيت التاكسـيات لحمـل الباقين.. ودخلت منزلي لأول مرة بعـد وفـاة أمـي وفـي صحبتي أكثر من عشرة شـعراء.. أعـرفهم لأول مـرة.. ويتعرفون علي لأول مرة..

(هل لهذه اللقطة مغزى معينًا..؟.. هل من حسن حظي أن أسجل الآن هذه اللقطة لتؤكد ما أؤمن بـه مـن أن للحـب وجوها كثيرةً ؟.. وأن قيمة الأشياء تكمن في معناها النبيـل وليس في قيمتها المادية ؟..)

لقد جلسنا يومها حتى الثانية صباحا.. أسمعهم وهم يشدون بأشعارهم المذهلة.. وكنت كمن واتته سكرة بريئة طرب لها وانتشى وراح لسانه يلهج بالثناء..

التقط إعجابي البادي الشاعر الشاب سعيد شحاتة الذي قال بعفويته:

- مادمت عاشقًا للشعر إلى هذا الحد لماذا لا تلتقي معنا بشكلٍ شهري ؟..

سألته:

- صالون...... ؟..

أجاب:

- لا أدري.. ولكنه لقاء..

وبكل عفويتي.. قلت للحضور.. منذ الشهر القادم سينعقد في هذا المنزل الصالون الثقافي الشهري الذي فرض نفسه فـي هذا اللقاء الحميم..

وقد كان..

إنني أقضى كل أيام الشهر بمنزلي فـي العاصـمة وعيني على اليوم الوحيد الذي أذهب فيه إلى القرية لمقابلـة أحبائي من رواد الصالون في منزلي بالقَرضا.. إنـه اليـوم

الذي يعيد التوازن إلى نفسي بعيدا عن التلوث الروحي الذي يقبض على سكان القاهرة.. وأنا منهم.. القاهرة التـي بهـا مكتبي.. ومسكني وأحلى ذكرياتي مع أسـرتي الصـغيرة.. ورغم أهمية كل ذلك إلا أنني لا أملك طرد الإحساس الغريب الذي يتولاني – أنا الريفي العاشق لريفيته لهجـةً وسـلوكًا وأداء – بأن الجذور ليست هنا.. وأن هناك فرقًا كبيرا بـين المقهى اللامع الذي يمكنك أن تختار غيـره فـي أي مكـانٍ بالقاهرة وبين المصطبة التي لا يمكنك اسـتبدالها بمصـطبةٍ سواها في القَرضا.. فأنا أتذكر أسماء كل من مروا بطفولتي البعيدة وعندما أسلم على إحداهن قائلاً: إزيك يا فلانة.. تقول لي:

- إنت لسه فاكر اسمي يا أستاذ؟..

ويأخذني التعجب.. كيف فعلاً مازلت أذكر اسمها حتـى الآن ؟.. وأنا الذي أنسى ما حدث لي بالأمس ؟..

أما العمارة التي أقطنها بالقاهرة وبهـا مـا يقـرب مـن عشرين مقيما تصطف سياراتهم الفخيمـة علـى الرصـيف المقابل.. فأنا أتبادل السلام مع عددٍ منهم لا يكمل عدد أصابع اليدِ الواحدة.. أقول السلام العابر علـى السـلم.. ولا أقـوم

بالزيارات المنزلية.. حتى أن ما يحز في نفسي هو ما يحدث لي هذه الأيام من تواجد سيارة إسعاف أمام العمارة يوما بعد يوم لحمل زوجتي المريضة على كرسي متحـرك للـذهاب لتُجرى جلستها بمركز غسيل الكُلى.. ورغم فداحة المنظـر واتسامه بالحزن الطاغي إلا أن أحدا من السكان لـم يفجـع ويطرق بابي مجاملاً: لا بأس عليكم.. قلبي معكم..

ولهذا فإن الحديث عن القـاهرة هـو الحـديث الـذي لا يستدعى إرهاق النفس بتسجيله.. القاهرة هي المقهى المزدحم الذي يفر بعض رواده النبلاء إلى المصاطب الوديعـة فـي الريف.. رغم ما يقال عن الريف ومدى تورطه في بعـض التلوث الروحي الذي أصاب المدينة إلا أنه في جميع الأحوال سيظل متمتعا بعددٍ هائلٍ من المفجوعين الذين يتحلقون حول أي سيارة إسعاف مأخوذين بالهلع الصادق ومحاولـة تقـديم لمسةٍ حنونةٍ تأتى في كلمة: (بعِدِ الشر.. شدة وتزول) تلـك الكلمة التي لا يفهمها جاري الهابط من المصعد في عنجهيـة وفي فمه سيجار ضخم لا يسمح له بإلقاء السلام فمن الأسـلم له ألا يلقي علينا السلام.. إذ من غير اللائق أن يقع سيجاره على الأرض.. لو فتح فمه..

*　　　*　　　*

(٦)

عضو اتحاد الكتاب المصري

كان المنظر يذكرك بما يفعله بعض الباعة فـي وسـائل النقل عندما يلقون عليك ببضاعاتهم مـن الأمشـاط وسـكر النبات ثم يدورون لجمع حصـيلتهم مـن البيـع، أو جمـع بضاعاتهم المردودة في الغالب..

يومها مر علينا في الفصل أحد الطلبة، وراح يضع أمـام كل منا على التختة " كتيبا صغيرا طالعت عنوانه: قلب مـن ذهب ".. رحت أتأمله و (أفِر) صفحاته لأكتشف أنها قصة..

انتهى الطالب الذي تولى التوزيع من طرح بضاعته ثـم وقف بجوار طالبٍ آخر قصير القامة ممتلئ الجسم يرتـدى نظارة قراءة.. ثم تحدث إلينا الطالب الأول موضحا أن هـذه القصة التي بين أيدينا هي من تأليف زميلكم " وأشار إليـه " إبراهيم الزاهد.. ثم راح يحثنا على تشجيعه بشراء النسـخة الواحدة بخمسة مليمات..

يومها اشتريت واحدة وقرأتها عدة مرات وكان أهـم مـا شغلني فيها هو اكتشافي أنه يمكن لطالبٍ صغير أن يؤلـف قصة ويطبعها ويوزعها..

كنت مأخوذًا بنفسي بعد حديث الزملاء عني حيث أننـي أحصل على الدرجات النهائية في موضـوعات (الإنشـاء) وكان التعبير المختصر يصف مثل حالتي هو أنني (إنْشَجِي) إنه نفس الاختصار الذي يطلقونه على صانع الكفتة (كُفتجي) والرجل البرم (برمجي) " تلاحظ أن صحف المعارضة هذه الأيام " تتحدث عن وزير سيئ الخلـق والأداء فلـم يجـدوا لعناوينهم عنه سوى (الوزير البرمجي) ؟..

لقد زادت تأملاتي بعدها عندما طلع علينا تلميذ آخر بقصة في حجم القصة الأولى اسمها (الهاوية) وأذكر أن هذا التلميذ الذي كان يكبرنا في السن اسمه " أحمد سليم ".. كنت أقترب منه بإعجاب وأتأمل تسريحة شعره وأتعجب كيف يجعله هكذا مدببا من الأمام.. وكيف يلمع هذا الشعر ويتماسك هكذا حتى أننا كنا نقول عنه إن شَعره أفضل من شَعر الممثـل أحمـد رمزي..

لقد رحت أتأمل العنوان.." الهاوية ".. هل هـو يقصـد " العمق السحيق ؟ " أم يتحدث عن فتاة " هاوية " أي تهوى الحب ؟.. وقلت لنفسي من المؤكد إنه يقصد المعني الثـاني لأن هذا الولد شكله (حبيب) لأنه دائما يدور حول الطالبـات بقصة شعره المعجبانية عارضا وجاهته.. وللأسـف ورغـم حصولي من ذاكرتي الآن على كل هذه التفاصيل التي مـر عليها ما يقرب من خمسين عاما إلا أنني نسـيت موضـوع القصة.. ولكن ما لم تفرط فيه ذاكرتي هو أنني قـد شـغلني موضوع التأليف والطبع بعد هاتين الحادثتين، حتـى أننـي صرت أضعهما نصب عيني كلما راوغتني الكتابـة البعيـدة عن موضوعات الإنشاء والتي أسموها فيمـا بعـد (تعبيـر تحريري) إذ إننا كنا نمارس (التعبير الشفهي) بارتجال النص المطلوب التحدث فيه والذي يحدده أستاذ اللغة العربية.. (هل يفعلون ذلك في المدارس الإعدادية أو الثانوية.. هذه الأيـام ؟!!)

كان أخي الأكبر الذي بجانب عمله فـي الزراعـة والمقاولات يحمل منصب شيخ البلد يحب القـراءة ويكلفنـي بالاستعارة من مكتبة المدرسة لكل الروايات التـي يحبهـا..

وكانت استمارتي في الاستعارة مـن أكثـر الاسـتمارات ازدحاما بأسماء الكتب.. فقد جلبت لـه – ولـي بـالطبع – روايات: "رد قلبي ".." والسقا مات ".." والأطـلال ".." ولا أنام ".. "وأرض النفاق ".. إلخ.. وأذكر أنه كـان يسـاعدنى على فهم بعض الأشياء.. كالكلمة التي قالهـا الـريس عبـد الواحد – في رواية رد قلبي - للعمال في أرض الباشا مـن ألا يهملوا خلع الحشائش و " السعد " من الأرض.. ولم أكن أفهم ما هو (السعد) إلى أن أخذني إلى زراعتنا وخلـع لـي واحدة وأفهمني أنه نوع من الحشائش الغريبة التي وجـدتها كنبات القمح الصغير.. (لقد أهديت إلـى روح أخـي هـذا مجموعتي القصصية الثانية: الخروج من عالم الأربعة فـي خمسة)..

رفع حاجبيه دهشة عندما اقتربت منه وبيدي مخطوطـة لقصة (من المؤكد أنها في أوراقي حتى الآن) اسمها " الفنان المعذب ".. وطلبت منه أن يطبعها لي.. وكنت قـد رسـمت غلافها ورسومها الداخلية حتى أتميز عمن سبقاني (إبـراهيم الزاهد وأحمد سليم) بهذه الرسومات..

لقد قرأها وراح يبدي إعجابه ببعض العبارات فيها مثـل قول الأخت لأخيها (سوف أجعل منك رجـلاً مـن رجـال المستقبل وزعيما من زعماء الغد).. وكانت المأساة في هـذه القصة أنها كانت تبيع جسدها لتُربيه بعد أن تيتما..

كنت في الخامسة عشرة من عمري وكنت أحظى بترتيب الأول في صفوفي (حتى الآن أولادي لا يصدقون ذلـك !!) وعندما هبط ترتيبي إلى التاسع دفعة واحـدة فـي النصـف الثاني من العام حزن أخي.. وتخلى عن تشجيعي في الكتابة وأنه لن يفعل ذلك معي إلا في أجازات الصـيف.. وهكـذا ضاعت على فرصة طبع أول مؤلف لي في هذه السن.. ولم يصدر لي أول مؤلف إلا بعد ما يقرب مـن أربعـين عامـا (!!).. وهي مجموعتي القصصية الأولى " إسكات الماضـي ".. ثم مجموعتي الثانية (الخروج من عـالم الأربعـة فـي خمسة)..

بعدها تابعت نشر كتاباتي..

كان صديقي الشاعر صبري أبو علم يحتفظ في أوراقـه بخطاب طويل مني كتبته لـه حاكيا تجربتـي فـي حـرب أكتوبر، التفت هو إلى أنه لا يملك خطابا قدر ما يملك عملاً

أدبيا صادقًا.. فدار به – لفرط حبه وإخلاصه لي – على كل المجلات طالبا أن ينشره، حتى أنه عقد لي مقابلة مع الشاعر الراحل صلاح عبد الصبور لينشره فـي مجلـة الكاتـب.. وسألني هذا الرجل العظيم في مقابلةٍ لا أنسـاها: إن كنـت أستطيع اختصار هذا العمل حتى لا ينشر على حلقات وهـو اتجاه لا تتبناه المجلة، وحتى لا يستوعب أغلب صفحات عدد أكتوبر المزدحم أصلاً بالأعمـال.. ؟.. وكـان أن أعلنـتُ رفضي له موضحا أن هذا من شأنه إفساد العمل.. فـاحترم الرجل قولي ووافقني عليه..

لقد نسيت هذا الموضوع إلى أن قام صديقي القاص رجب سعد السيد باستخدام مادة الخطاب في عمل رواية أسـماها " نقوش الدم " ونشرها في إحدى مطبوعات هيئة الكتاب.. ولم احتج أنا قدر ما احتج صديقي صبري ومن حوله على هـذا الاستخدام غير الشرعي لتجربتي رغم ما قام به رجب مـن تسمية اسم البطل باسمي راسما كل شخصيتي.. وعندما كتب لي رجب أنه نوه في مقدمة الرواية من أنها مسـتلهمة مـن خطاب المقاتل الفنان فلان وأن الهيئة أسقطت هـذا التنويـه صدقته.. ولم أحزن..

لقد راق لي بعدها أن أرسل بالرواية/الخطاب إلى الأهرام لأفاجأ أنها راحت تُنشر على أربع حلقات في ملحق الجمعـة تحت عنوان "الممر".. وقيل لي لفرط استحسان القراء لها إن الجريدة قد تلقت من بعض القراء طلبا لكتابة نبذة عن هـذا الكاتب الذي لا يعرفونه.. كانت الحلقة الرابعة والأخيرة قـد نُشرت وكتبوا أسفلها - بالخطأ - البقية في العـدد القـادم.. ولما لم يجدوا عندهم مادة للحلقة الخامسة اتصلوا بي لأنهـم في هذه الحلقة سوف يكتبون تعريفًا بشخصي.. ولما أفهمتهم بذلك الخطأ الذي وقعوا فيه راحوا يشجعونني أن أؤلف حلقة جديدة.. وتلك فرصتي لتقديمي إلى القراء مع نشر صورتي..

لقد حاولت أن اُسلم نفسي وقلمـي لهـذا الإغـراء فلـم أستطع.. مما جعلني أعتذر لهم مقتنعا بما قررته وقانعا بمـا كسبته من نشر روايتي في أشهر صحيفة عربية..

لم أعرف أن الأمر لن يتوقف عند هذا الحـد إلا عنـدما أعلنت وزارة الدفاع عن مسابقة كبرى للحصول على أحسن عمل أدبي عن حرب أكتوبر.. و.. (الكبرى) هذه يمكنك أن تستدل عليها من قيمة الجوائز: الأول ١٥ ألف – الثـاني ١٣.. الثالث ١١ وهكذا حتى العاشر.. مبلغ ضخم قلت عنـه

إنه يكفي لتأسيس عدة دور للنشر ذلك القول الذي به تعجب لأنهم – رغم هذا – لم ينشروا أعمالنا الفائزة..

شجعني أستاذي عبد العليم عيسى للدخول (بـالممر) فـي هذه المسابقة.. وقد كانت موافقتي على ذلك نتيجة لحماسـه الشديد لهذا العمل " الذي به صدق لن يخطئه القارئ ".. وأكد لي أنها ستفوز بالمركز الأول(!!)

كنت عائدا إلى منزلي في العاشرة مساء بعد يـوم عمـلٍ شاق بمصنع الطوب الذي أُنتجه وأقوم ببنائه للغيـر عنـدما قابلني ولدي متهللاً (مبروك.. يا أبي).. هو يناديني هكذا (يا أبي).. لقد أعلنوا في نشرة الساعة التاسعة خبر أنـك الأول في المسابقة عن قصة " الممر ".. وعرفت أنهم أعلنوا اسمي هكذا الملازم أول: أحمد أحمد ماضي.. طبعا لأنني خضـت الحرب برتبة مـلازم أول.. وتعجبـت لهـذه الدقـة غيـر المستساغة.. فماذا لو قالوا: المهندس: فلان..

بعدها تمنيت أن ينشروها لي حتى لو خصموا قيمة ذلـك من شيك الجائزة.. وبعد سنوات نشرتها على حسابي.. بعـد أن كنــت قــد قــدمت مجمــوعتي القصصــية الثانيــة (الخروج.....)..

وعودة إلى مهنتي التي كانت تلتهم كل وقتـي - إلا مـا يتسرب منه لصالح الكتابة - فقد اندفعت إلى عالم المقاولات فقمت ببناء ٣٢ مدرسة في الفترة من عـام ٩٤ إلـى عـام ٢٠٠٠ وكنت متفوقًا وأحقق الأربـاح كمـا أنشـأت عـدة مجموعات من عمارات إسكان الشباب إلى أن حدثت وقيعـة بيني وبين أحد الآلهة الصغار من أصحاب الأعمـال.. إنـه لواء مخابرات سابق كان يدير منظومة بناء المـدارس.. لا أنكر أنه يديرها بجدارة.. ولكنه كمـا قلـت عنـه (يبنـي المدارس ويهدم البيوت) وكان منها بيتي الذي أنقذه ا من يد هذا الأخطبوط.. لقد كلفني تحديه لي وقبولي هـذا التحـدي خسارة تزيد عن المليون من الجنيهـات.. ومـع هـذا فقـد أجبرني على التنازل عن أربع قضايا كسبتها ضده.. ولو لـم أفعل ذلك فقد كان خراب بيتي وشركتي محققًـا.. وعنـدما اضطررت للتنازل مقنعا نفسي بمكسبي الأدبي المتحصـل - وهو أنني فزت بالقضايا - لم ينفع هذا الاقتناع الـواهم فـي تطييب خاطري فسقطت تحت وطأة أزمة قلبية سـاهم فـي سرعة حدوثها أزمة أخرى حياتية..

لا أدري لماذا كانت صورة جمال عبد الناصر تلح علـي وتطاردني وتجعلني أستعيد كل إعجابي به كبطل.. بطل لـم يستسلم للاستعمار من أمريكا إلى إنجلترا إلى إسرائيل.. بـل واجه أعداء الشعب في الداخل وأعداء الثورة من (إخـوان – وشيوعيين – وإقطاعيين – ورجعيين.. إلخ) ومع ذلـك فلـم يستسلم.. أما أنا فأصبحت ذلك (المستسلم) الذي خاف علـى منزله فخضع لديكتاتور صغير.. لقد مر على ذهني خـاطر غريب: من ليس بطلاً ليس لـه إلا أن يكتب عن بطلٍ واحد مواراة لخجله من نفسه.. ومن هنا فقد عكفت علـى كتـابي (جمال عبد الناصر.. أمير الفقراء)..

وعندما مات أستاذي عبد العليم عيسى فقد وجدتني أعكف في ذكراه الأولى على قصيدة امتدت حتى صارت ديوانًـا.. أسميته " الناي الحزين".. وفي ذكراه الثانية أخرجـت مـن أوراقه - التي آلت إلى بحكم الظـروف - كتابـا صـغيرا أسميته " أوراق شاعر من الزمن الجميل "..

ثم راق لي أن أحقق بحثًا في كتيب صغير عن شـاعرين راحلين أحدهما مات في أواسط العمر مهزوما مـن الحيـاة وهو " عبد الدايم الشاذلي " والثاني مات فـي أرذل العمـر

ممسكًا ومتمسكًا بحب الحياة وهو الشـاعر " عبـد العلـيم القباني".. وأسميت البحث (صحوة الموت.. وغفوة الحياة).. ورحت أهفو إلى معاودة نشاطي في الكتابة الذي توقف – إلا قليلاً – أثناء نشاطي المهني الهندسي المعماري..

لقد خرجت باختياري من مستنقع المقاولات في سـبتمبر ٢٠٠١.. وكنت أحلم بعملٍ روائي أضع فيه نفسـي ممـثلاً لجيلي في حالةٍ من التوازي مع حالة الوطن.. فما حدث لـي قد حدث للوطن.. وما حدث لمصر حدث لنا.. العمل والأمل والألم والحب وانكسار الحلم والمعاناة ثـم الغيبوبـة.. لقـد وجدت أننا نعيش في غيبوبة يعيشها الوطن.. القاهرة تـرى ولا تسمع.. تحس ولا تتكلم.. وتبعتها كل العواصم العربية.. إذن فالغيبوبة الشخصية هي الرداء الذي لبسناه مـن نسـيج مصر / العروبة..

وكانت " الظلام الدافئ " هي الرواية التي أرهقتنـي فـي الكتابة منذ عام ١٩٩٨.. أغادرها جائعا وأعود إليها نهمـا.. أخاصمها وتخاصمني.. ولا ألتفت لما يبديـه أبنـائي مـن احتجاج وتعجب عندما أقول لهم كم أتمني ألا أموت قبـل أن أعرف النهاية وأكتبها.. وعندما أنهيتها في ليلة واحدة كتبت

فيها (الفصول المتشابكة لسنوات العمر البارد) من العاشرة مساء حتى السابعة صباحا رحت أجهش بالبكاء.. لا أدري إن كان ذلك لفرحتي أنني وصلت إلى خط النهاية.. أم حزنًا على مصر.. أقصد البطل الغائب حتى الموت.. الميت حتى الغياب..

لقد شبهت موقفي من الاحتراق بالكتابة لصديقي الأستاذ أحمد عبد الحي عميد كلية الآداب بكفر الشيخ بحوض تصريف المياه الذي كان يعاني من (سدة) أو انسداد.. فلما عولجت أو راحت (السدة) انهمر التصريف وزال الركود..

ومن هنا فقد كتبت أربع روايات منذ يوليه ٢٠٠٢ وحتى أغسطس ٢٠٠٤..

- طائر الشوك: عن بطل يراوغ الزمن ويعشق المدن والنساء والحياة بشكل أسطوري..
- دموع النوارس: رواية كل أبطالها من الشعراء حول حياتهم وقصائدهم وعواطفهم التي تضفرت وتشابكت في دراما هي الأمل الذي يضيع.. والحلم الذي ينكسر..

- لست أنا.. لكنه اسمي: رواية قصيرة كان بطلها الحـوار
والثرثرة التي سمعتها بنفسي مـن
شلة من الضـائعين جمعتنـي بهـم
غرفة الحجز بقسم شـرطة مدينـة
نصر لعشر ساعات في ضربة حظ
سببها أن اسمي (رباعيا) كان يشـبه
اسم أحد المجرمين.. الضالعين فـي
الإجرام..

- وأخيرا:
ابحثوا لنا عن إمام آخر: وهي فانتازيا سياسية أتاحـت لـي
الحديث عـن الإصـلاح السياسـي
المزعوم.. مزعوم مـن أمريكـا..
ومن النظام.. ولكنه حديث الـدراما
السوداء أو الضـحك الأسـود.. لا
فرق.. في نظري بينهما..

- أما هذه الكراسة فقد حرضتني عليها فكرة عابرة وهي
أن أُحول بنود بطاقتي العائلية إلى عناوين لشهقات أصل بها
إلى دروب الطفولة .. وتذكرت ما اختاره نزار قباني.. كتب

حياته في الشعر بصياغة نثرية جاءت كالشعر.. وليس أقـل من أن يقتفي الروائي حياته بالحكي عنها بلغة هي الروايـة نفسها..

أما الكراسات والكشاكيل التي تحتل مكانًـا عزيـزا فـي (دولاب الأدب) كما أسميه فهي التي تحمل بدايات روايـات عديدة بدأتها في مراحل مختلفة من عمري ومازالت مفتوحة تطلب مني نظرة إشفاق لانتشالها من طول بقائها في العراء عارية باردة مرتجفة.. إنها الأعمال الناقصـة أو المسـكوت عنها إلى حين وهي:

- السيدة الفاضلة: فنانه هربت متنكرة لتعيش في حي شـعبي بعيـدا عـن عـالم الفـن والضياع..
- الحائر: شخصية كنت أرسمها لشاعر ظـل يحـب الحيـاة والفـن والإبـداع والناس.." رغم كل شيء "..
- ما بعد الأيام: لعلها (أيام أُخر) لطه حسين.. كتبت بـدایاتها فـي خنـادق حـرب

الاستنـزاف بالقلم الرصاص.. ولم أكملها حتى الآن..

- حديث النكسة: كنت أهفو إلى عمل روائي بطعـم السياسة.. هذا العمل كان ومازال غائما..

- ونحن نجوع أكثر: قصـة بطولـة فـي مصـارعة الحياة... أبطالها أناس جارت عليهم الحياة.. (دراما اجتماعية)..

وماذا بعد.. ؟..

لا أدري.. ولكني أعيش متمنيا أن تمتد يدي بشوق إلـى أحد هذه الأعمال لأسترجع إرهاصاته القديمة، وأكمله بـنهم، كما حدث لي عندما امتدت يدي إلى رواية ناقصة كان اسمها المؤقت (أحزان الشيطان).. وعندما انتهيت منها كـان قـد استقر رأيي أن يكون اسمها (طائر الشوك)..

فمتى يستقر رأيي على أشياء أخرى كثيرة ؟..

أشياء أحسها ولا أراها.. أسمعها ولا أفهم معناها:

- حوارات غائمة..
- أحداث هائمة..

- رواية..
- حكي..
- قص..
- ديالوج..
- منولوج..
- سرد..
- أحداث من الوهم..
- أوهام لم تحدث..
- ذاكرة حبلى..
- ورحم يتسع لاحتضان حيوات لم تخلق بعد..
- ولكنها لا تجيء..
- روايات أتمنى أن تجيء..
- أخشى ألا تجيء..
- فمتى تجيء ؟..

* * * *

أرض الجوالف

من ٤: ١٤ / ٩ / ٢٠٠٤

السيرة الذاتية للمؤلف

- أحمد ماضي
- مهندس معماري
- خريج كلية الفنون الجميلة
- عضو اتحاد الكتاب المصري
- عضو نادي القصة
- عضو جمعية الأدباء
- يقيم صالونه الثقافي بقريته (القَرضا - كفر الشيخ) الأثنين الأخير من كل شهر .

إصداراته و الجوائز التي حصل عليها:

1. " الممر " الجائزة الأولى عن أحسن عمـل أدبـي لحرب أكتوبر.. وبها قصـص قصـيرة "الـدم" الجائزة الثانية مـن القوات المسـلحة. "العـودة" الجائزة الأولى مـن مجلة الهـلال. "مأموريـة" الجائزة الأولى من نادى القصة .
2. "إسكات الماضي" ـ (مجموعة قصص قصيرة)

3. " الخروج من عالم الأربعة في خمسة" (قصص قصيرة)
4. "الناي الحزين" (ديوان شعر بالعامية المصرية... حول الشاعر عبد العليم عيسى)
5. "أوراق شاعر من الزمن الجميل" (حول حياة وتجربة الشاعر عبد العليم عيسى)
6. "جمال عبد الناصر..أمير الفقراء.." (تأملات في حياة زعيم)
7. "صحوة الموت وغفوة الحياة" (إضاءة نقدية)
8. "الظلام الدافئ" (رواية)

له تحت الطبع:

1. طائر الشوك ـ (رواية)
2. لست أنا.. لكنه اسمي ـ (رواية)
3. دموع النوارس ـ (رواية)
4. الفلاح.. بطل الفيلم ـ (ديوان شعر العامية المصرية)
5. أقوال صياد.. طيب ـ (ديوان شعر بالعامية المصرية)
6. كانت هنا أُنثى ـ (ديوان شعر بالفصحى)

7. ابحثوا لنا عن إمام آخر ـ (فانتازيا سياسية)
٨. تلك الروايات متى تجيء ـ (ثرثرة حكائية)